الصحوة

تحديات داخلية وخارجية
معالم ومخارج

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(/ /٢٠١٢)

.
،
/_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
() ص
ر.أ: (/ /٢٠١٢).
الواصفات: / //

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



الصحوة

تحديات داخلية وخارجية

معالم ومخارج

محمد حمدان السيد



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وبعد:

فهذا كتاب في موضوع نظن أنه من الموضوعات الهامة التي يكتب فيها ونحن في العقد الأول من قرن ميلادي جديد، وقد بدأت تطل منذ سنواته الأولى إرهاصات تقود إلى عالم جديد، يقوم على أنقاض عالم بدأ يتهاوى، بكل ما كان فيه من ثقافة وسياسة وعلاقات.

ولقد خرج هذا الذي نقول عن طوق التكهنات إلى دائرة الممارسات والتحولات، بعد الانهيار السريع، الذي حل بالنظم ذات السيطرة الشمولية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي؛ ذلك الانهيار الذي غطى بطيات مجرياته على بدايات التراجع للنظام الرأسمالي، الذي أخذ يتآكل، على خلفية خوائه الروحي والأخلاقي، وسقوط أسلحته التقليدية، التي راح بريقها يختفي شيئاً فشيئاً، تحت وطأة تحويلها الإنسان إلى آلة، أو مسنن في حركة آلية غير متوازنة، أنجبت التشرد، والتفكك الاجتماعي، والضياع الإنساني، وكل رذائل الرأسمالية، التي لم تعد خافية على أحد، حتى عند أشد المتحمسين لها، من الذين يُنظرون للخروج بها من أزمتها البنيوية الشاملة، التي لا تقع تحت تصنيف ظرفي طاريء يمكن الإحاطة به بواسطة التحكم بذلك الظرف وتغيير عناصره. وكذلك بعد أحداث الحادي عشر من أيلول «سبتمبر» التي استغلتها أمريكا زعيمة حضارة الرأسمالية الغربية أبشع استغلال من أجل فرض هيمنتها العسكرية والاقتصادية والثقافية، بلا وازع من خلق أو إنسانية أو دين، وبلا أي رادع من احترام الآخر وثقافته وخصوصياته، مما أدخل العالم في حالة من القلق... زادت من حدة التداعيات المتجهة بسرعة نحو التغيير غير المتعقل، والمنهج المنفلت من عقال القيم والاحترام المتبادل بين الأمم.

ولقد ألمح إلى هذه الأزمة البنيوية الشاملة في النظام العالمي الرأسمالي الحالي أحد أقطاب هذا العالم، وهو السياسي الياباني (باسو هيرونا كاسوني) رئيس وزراء اليابان السابق، حين قال عام ١٩٨٨ في مجلة (سيرفيافل): (عندما يمر المجتمع الدولي والمجتمعات المحلية بتحولات سريعة فإن الأفراد والشركات والأمم لن يمكنها الاستمرار في تأكيد وجودها ودعم بقائها إلا إذا أزاحوا الحواجز التي تفصل بينهم، ويحترم كل طرف وجود الآخر). فهو لا

يجد مجالاً للخروج من الأزمة التي شخصها إلا بالتغيير الشامل للثقافة والنظرة والأسس التي يقوم عليها النظام العالمي الحالي.

حقاً إن حضارة يتناقص عدد أفرادها باطراد مستمر، بسبب الخوف من المستقبل الذي ينتظر أهلها، واكتفاء شبابها بالعلاقات غير الشرعية، والنزعة الفردية غير المرتبطة بالسماء، التي تدفع صاحبها إلى اللهاث وراء مزيد من اللذة غير المسؤولة، ودفع نسائها إلى أسواق العمل بلا رحمة، ولا نظرة سديدة إلى البيوت والأطفال والطبيعة.

حقاً إن حضارة كهذه تنقل عنها اللجنة الاقتصادية والاجتماعية في السوق الأوروبية المشتركة إحصائية تقول: إن عدد سكان دول السوق عام ١٩٨٥ بلغ ٢٦٩ مليوناً، ويتوقع أن يكون العدد عام (٢٠٢٥) ٢٤١ مليوناً، لن تكون إلا في طريقها إلى الزوال مع الأيام، وإن مفكريها يقومون اليوم بإيجاد المخارج لها من المآزق، التي تلفها بطبقات سميكة من أسباب الانحدار والتردي، بعد أن سارت بالناس أشواطاً طويلة، بعيداً عن الفطرة الأصيلة.

ولقد انطلقت صيحة مدوية من أحد أركان النظام الغربي، الذي بدأت تبرد أطرافه وأجواؤه رويداً رويداً، تحت عوامل التجمد التي وضع الإنسان الحديث مساره على طريقها، انطلقت صيحة روجيه جارودي محاولة إيصال إشارة الخطر، عندما قال: (ولا بد لنظام اقتصادي عالمي جديد من نظام ثقافي عالمي جديد، والنظام الثقافي الجديد هو: الانتقال من الهيمنة الغربية إلى توافق عام بين البشر لإعادة رسم خطة إنسانية شاملة، إن حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها؛ إنه قضية بقاء، لقد بلغنا حد الخطر، بل لعلنا تجاوزناه).

تماماً كما صاح من بعد كاسوني رئيس وزراء اليابان السابق، صيحات تنذر بأن العالم اليوم يقف على مفترق طرق، يحمل المادة والعلم والمعرفة والعقول، وقد استعملها كلها - طوال قرون- بأساليب أنهكته، وأودت بحيويته، فأوكلته إلى نفسه الأمارة بالسوء، وإلى هواه الذي يتردى به في دهاليز نتنة، يرتطم خلالها بجدران القوة والفردية، والحرب النووية، وضياع النسل، والغرق في المادة، وغياب الروح الهادية المستنيرة، التي يمكن أن تخرجه من ضياع العولمة القاهرة ومن جرّ العالم وراءه في هذه المتاهة، التي أحكمت عتمتها على عالمنا العربي بدعم ديكتاتوريته واحتكار السلطة فيه، ولقد بدأ العالم وفي بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين يستعيد عافيته بثورات مباركة؛ بدأت من تونس، وثنت بمصر، وانتصرت في ليبيا، وهي في طريقها إلى النصر في سورية وفي اليمن وفي غيرهما من أقطارنا

العربية.

والصحوة الإسلامية أمام هذا العالم المتخبط الحائر الواقف عند الأبواب المجهولة المدى، تمثل شمعة تحاول أن تضيء عتمة هذا العالم المعرض عن الهدى، إلا أنها ما زالت بطيئة التأثير لأسباب كثيرة أهمها: التباس الخطاب الذي تطرحه هذه الصحوة حتى اللحظة وتباينه وخلافاته. غير أن مشاركة هذه الصحوة في الثورات الجديدة من عام ٢٠١١ بزخم واضح، وتعريب الخطاب وديمقراطيته طرحت في الساحة لوناً زاهياً من الحضور المشارك الفعال للحراك الإسلامي.

وإننا نريد من النقاش الذي سنديره على صفحات كتابنا هذا أن نبين أولاً بعض التحديات التي تجابه الصحوة الإسلامية، في قابل أيامها، ثم ننتقل إلى تحديد الأولويات، في مواجهة هذه التحديات، معرجين من خلال ذلك على الوسائل والأساليب التي يمكن إتباعها للوصول إلى معالجة التحديات وتحقيق الأهداف.

أولاً- نوع التحديات

ومن أجل تسهيل البحث نستطيع أن نقسم التحديات التي سوف نتعرض لها إلى:

١- تحديات داخلية.

٢- تحديات خارجية.

ولكل قسم من هذين القسمين مظاهر وأشكال يظهر بها، يجب تحديدها، وبيانها بوضوح، لتسهيل الإحاطة بها، ومن ثم لتلين للبحث والمعالجة إن شاء الله.

وفيما يلي بعض مظاهر هذه التحديات، ليس حصراً ولكن اجتهاداً، والباب مفتوح للإضافات:

١- تفرق صفوف الصحوة وعدم وصولها ولو إلى صيغة تنسيق فيما بينها، والتحدي الأكبر في هذا المجال هو: إيجاد صيغة مشتركة، تكون وثيقة عمل مشترك، تقود مسيرة الصحوة بشكل منظم ومدروس.

٢- القصور الظاهر عند أفراد الصحوة وفصائلها، في الفقه عامة، وفقه الحركة بصورة خاصة، مما نرى أثره الواضح في الحركة الخاطئة، على مستويات عديدة، فردية وجماعية، وهذا ما يقتضي من أصحاب القرار في صفوف الصحوة، أن يتلافوا هذا النقص الخطير.

٣- إن خطوط التربية الفردية والجماعية داخل صفوف الصحوة وفصائلها المختلفة فيها من الخلل ما هو واضح في: الافتراق في اتجاهاتها ووسائلها وخطابها، مما أدى إلى توسيع الهوة الفاصلة بينها، وأحدث كثيراً من الثغرات التي تؤثر في التكوين الإسلامي التربوي عند الأفراد والتجمعات، وهذا ما يدعو إلى معالجة سريعة لهذا الخلل الفادح، الذي يؤثر على بناء الإنسان المسلم من محاور متعددة هي:

*** محور القصور الروحي.**

*** محور بناء الشورى وتقبل الرأي الآخر.**

*** محور النظرة إلى الآخر، سواء أكان الآخر فصيلاً إسلامياً أم غير إسلامي.**

*** محور الارتباط الإقليمي والمحلي والعشائري.**

*** محور النقد الذاتي وبعبارة أخرى: ما هي الثوابت أو القطعيات التي لا يجوز المساس بها؟ وما هي الأشياء التي يجب أن تخضع للنقد دون الوقوع في الإثم؟**

*** محور الانفتاح أو عدم الانفتاح على الثقافات، وبعبارة أخرى (الانغلاق على الذات).**

*** محور العنف ووسائله، أو عقلية التسلط المطلقة.**

هذا وبالله التوفيق ومنه التسديد وعليه التكلان.. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وكتبه

محمد السيد

كانون الثاني/ يناير/ ٢٠١٢

الباب الأول

التحديات الداخلية

وفيه مباحث

المبحث الأول

فصائل الصحوة الإسلامية... وتنسيق العمل بينها

البند الأول: تمهيد

ليست ظاهرة عابرة تلك المفارقات التي تتبدى للناظر في أوضاع الحركات الإسلامية المختلفة، التي تقود حركة الصحوة الإسلامية فوق أرض الأوطان الإسلامية. وليست هذه المفارقات والاختلافات بين فصائل الصحوة من الغموض بحيث تغيب عن عين الناقد النزيه، الذي يريد الخير لهذا الزخم الإسلامي الهادر، ويبتغي له كل رشد وتسديد وتفوق.

بل إن هذه المفارقات والاختلافات من الوضوح بمكان يستدعي التأمل والتدبر في شأنها، للوصول إلى الاستنتاجات والحلول التي تؤدي إلى تصويب خطوط سير الفصائل الإسلامية وطرق تعاملها وأساليب الاتصال فيما بينها، وذلك حتى لا يمضي الركب الدعوي في عمق الزمن، حاملاً في جنباته تراكمات من الخلل، الذي يبتعد بالخطاب الإسلامي للجماهير عن حدود فهمها وتفاعلات نفوسها وحركة عواطفها ونبضات عقولها، إذ يدعها في حيرة من أمرها، بين تلك الأصوات المتناظرة أحياناً أو المتناقضة أحياناً أخرى، أو حتى المتبادلة للاتهام والعداء في ظروف غامضة، وكل ذلك بسبب فقدان الحد الأدنى من الرؤية المنسقة المنسجمة مع الهدف الواحد الذي ينادي به الجميع.

وإنه لمما يضاعف خطر المفارقات والاختلافات التي ذكرنا: تلك الحركة اللامبالية بما يتراكم من خطر نتيجة الانغماس في غمرة العمل والنشاط والقناعات الفئوية الحزبية الضيقة، التي تمضي بإنسان الدعوة إلى المدى الذي تقوده إليه محدوديته تلك، من غير أن يعبأ بما تحدثه خطواته من آثار تعكس المرارات والمجابهات وحتى الإحباط!

من المفيد أن نثبت هنا: أن النوايا الحسنة لا تغني عن حسن الاستخدام للطاقات والإمكانات والجودة في إدارتها وتوظيفها، كما أنه من المفيد أن نعلم جميعاً أن غياب التنسيق المنشود في حركة الجميع لا يشفع له إدعاء الأفراد والجماعات بالرزوح تحت وطأة الهموم اليومية والانشغال الدائم المستمر بتلك الهموم.

إننا إذا كنا جادين بمطالبة العالم من حولنا أن يعترف بحركتنا الإسلامية الهادرة وبأثر هذه الحركة في الأحداث الاجتماعية والسياسية، يجب علينا أولاً وقبل كل شيء: أن نقدم أنفسنا لهذا العالم ماسة واحدة، ذات وجوه هندسية منسقة متعددة، لا يختلف أحدها عن الآخر، إلا بنوع البريق أو شدته، ولكنه في النهاية حدٌ من حدود الكتلة الواحدة المتماسكة المنظمة، التي تعضد وحدتها وكتلتها المعاني الشرعية من طرف، والمعاني العملية الميدانية من طرف آخر.

وقبل أن نخوض في كل من المعنيين الشرعي والعملي، نضع على الطريق بعض نقاط، نجعلها علامات للوصول إلى حال من حالات التنسيق في قابل الأيام. ومن هذه النقاط:

١- من الواجب على فصائل حركة الصحوة الإسلامية أن توسع آفاقها النظرية والعملية، سيما وأن المعطيات الميدانية على ساحتها العربية والإسلامية، تقع في إطار المستجدات المتسارعة، وأن المعادلات السياسية والاجتماعية ترزح تحت نير المتغيرات (الديناميكية)، التي تجعل العمل على الساحة لهاثاً خلف إيجاد الصيغ المناسبة لكل تغير أو تبدل، مما يجعل الفصائل المتفرقة متخلفة أشواطاً عن إدراك الوسائل المواتية لما يستجد، ما دامت تلك الفصائل متباعدة الخطوط، متوازية في السير.

وذلك الواجب يتطلب من الجميع أن يتحلوا بقدر كبير من تربية النفس على الإيثار ونبذ الأثرة والتقوقع داخل قشرة الإطار الحزبي، مقتدين في هذا السبيل بأنوار الهدي النبوي الشريف، الذي يوجه إليه الحديث، الذي رواه مسلم في صحيحه: (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تستنكرونها، قالوا يا رسول الله: كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم).

٢- لقد علمتنا التجارب الحياتية أنه إذا كان الحوار لغة مطلوبة بين الأضداد متعاكسي الأهداف، فهو أولى وأحرى بمن تنتظمهم مجموعة أهداف واحدة، وحركات (تكتيكية) متشابهة، بل إن الميراث الطويل من العمل الذي يكاد يكون واحداً، يجعل من اكتشاف لغة مشتركة للحواربين الجميع، تصل إلى حد التنسيق المبرمج في خطوط متلاقية أمراً سهلاً، سهولة اكتشاف الروابط والتقاطعات (الإستراتيجية والتكتيكية)، خلال تاريخ العمل الإسلامي الحديث.

٣- إن مفهوم: (توازن المصالح والقوى) الذي بدأ يطفوا على سطح

العلاقات بين الدول، التي لم تكن لتلتقي من قبل، لبعد ما بينها من أهداف، ولكونها اعتمدت على مبدأ تقابل القوى، الذي كان سائداً منذ الحرب العالمية الثانية أقول: إن هذا المفهوم بدأ يقرب بين المتباعدين، ويوجد أرضية لتنسيق المواقف، بل لتوحيد القوى في كثير من الأحيان، مثلما يحدث في أوروبا الغربية وغيرها..

وحري بفصائل الحركة الإسلامية أن تستفيد من هذا المفهوم السياسي. من أجل إعادة النظر في نوعية العلاقات الإنسانية والحركية فيما بينها، لتكتشف ما كان يجب أن تكتشفه من قبل، وهو: أن ما كان مبنياً على التنابز والتقابل في علاقاتها المتشابكة، إنما كان يبتعد بتيار الحركة عموماً عن أخذ مكانها الذي تستحقه في صناعة الأحداث والتأثير في مجرياتها، بسبب أن ذلك التنابز والتقابل في العلاقات كان يجعل محصلة العمل ضئيلة بصورة عامة، فوق أرضية الحركة السياسية والاجتماعية، رغم علو الأصوات وكثرة الضجيج.

نقول ذلك، وأمامنا الفرص الكثيرة التي فاتت، أو فوتت على أجنحة من الحركة الإسلامية ما كانت لتفوت لو كان التفاهم والتنسيق يشكل لغة العمل والحركة بين الأجنحة المختلفة من تلك الحركة.

٤- إن العبور إلى شاطئ الوحدة أو التنسيق – على الأقل – بين فرقاء الحركة الإسلامية العتيدة، يجب أن يتم على مركب الشعور العام بأن التحديات التي تواجه الخطاب الإسلامي في قابل الأيام أصبحت من التعقيد بمكان، لا يستطيع أن يواجهها فرد بنفسه، أو فصيل بمفرده، بل أصبح التصدي لهذه التحديات يقتضي جمع الجهود في تيار واحد، وإلا فإنه إذا بقي كل فصيل يبني حركته على أنه هو القادر، وهو الذي ينتهج وحده نهج السير الصحيح، ويتعالى على الآخرين بهذا الشعور، فسوف يسبقنا تيار الحياة بمسافات وأزمان، وسيبقى تأثيرنا في حركته محدوداً، بل ومنبوذا في أحيان كثيرة.

٥- بعد كل الذي ذكرنا ومع تحقيق الوحدة بين فصائل الحركة الإسلامية، أو تنسيق الجهود على الأقل، يجب أن يكون مفهوماً أن ذلك يؤيده ويدفع إليه معرفة عميقة بطبيعة العناصر المكونة للأرضية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية للمجتمعات التي تتحرك الدعوة فوق ساحتها، كما يقتضي ذلك معرفة ضرورية، لمداخل هذه الأرضية ومخارجها ومفاتيح التحكم بأولوياتها، واستطاعة عالية على التكيف مع الظروف والمستجدات، والاستجابة السريعة لواجهات تلك

المستجدات، بما يناسب ولا يؤثر على المبادئ والخطوط (الإستراتيجية) الكبيرة. ونحن نقول ذلك في ظروف التحولات السريعة جداً في العالم، ونخص بالذكر من تلك التحولات، ما يجري في بلاد العرب من ثورات وتغيير سريع منذ بداية عام ٢٠١١م. وهو ما يقتضي من فصائل الحراك الإسلامي أن تكثف جهودها باتجاه تنسيق المواقف النظرية والعملية على الساحة.

يرافقنا ويحدونا في كل ذلك بساطة خطاب الإسلام وشموليته، وهما الميزتان الرئيستان اللتان استولى بواسطتهما ديننا على قلوب معظم الشعوب بلا استثناء، بغض النظر عن قومياتها ولغاتها، مع أن هذا الخطاب جاء باللغة العربية، وحمله رجال عرب في البدايات.

٦- إن التقارب في الزمان والمكان الذي تحقق في العقود الأخيرة من القرن العشرين، يدعونا جميعاً كفصائل متفرقة أن نحث الخطى ونغذ السير في حركة دائبة غير مسبوقة، لتحقيق ما يطلبه هذا التقارب الزماني والمكاني من جمع للجهود في مختلف بقاع الأرض، ليصل صوت الحركة الإسلامية إلى كل مكان بصيغة واحدة متفق عليها. وحتى لا نجني في النهاية عواقب الصيغ المختلفة التي تطرح، وتبدو كأنها أديان وأفكار وعقائد مختلفة لاسم واحد هو الإسلام، مما يثير البلبلة والحيرة في نفوس المستقبلين لهذا الدين.

إننا نجزم: أنه بغير هذا الوفاق والاتفاق لن نستطيع أن نعبر إلى الناس بصوت مقنع وصيغة مقبولة، وبالتالي فإنه لن يكون للأصوات المتفرقة إلا أثر باهت ومحير في الآفاق.

٧- إن الولادة الحقيقية لأفكار الوفاق أو التنسيق أو الوحدة، لن تتحقق إلا في اللحظة التي يتخلى كل فريق عن التغني بتفرده بصوت مرتفع، ثم يتقدم الواحد منهم شبراً واحداً نحو أخيه، ليلتقيا في منتصف الطريق، فتنقدح لحظتها شرارة العمل المتناغم، المبني على الحب والاحترام والاختصاص.

إن الحماس العاطفي نحو وحدة فصائل الحركة الإسلامية أو تنسيق خطوطها، يجب أن يندفع بشيء من غريزة حب البقاء وتحقيق جمع للذات الإسلامية، لتنطلق وحدة الحركة من عقال الأنانية الفردية أو الفئوية الحزبية في مسافات العمل المتساوق الموحد، تحوطه يد الله، وترعاه عنايته الحانية

تحت شعار: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(١).

ومن خلال تنوع المهام الذي بيّنه الله تعالى إذ قال جلّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(٢) فهم (المؤمنون) فرق ومهمات واختصاصات، ولكنهم بالنظرة العامة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

وفي الصورة المقابلة تكون الحالة مبينة في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (٣). فالتوجيه الأول يفضي إلى التوجيه الثاني، وهما متلازمان في حس المؤمن وذهنه وفكره، وإن لم يكونا كذلك عنده فهي الفتنة والفرقة والتنازع وذهاب الريح ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٤). فهل يعي أهل الصحوة والحركة هذه المنطلقات والعلاقات، فيعضد الكتف الكتف، ويتلاقى السعي مع السعي، وتنضم الموجة إلى الموجة، لينتظم الجميع في حركة منظمة واحدة هادفة أو منسقة على الأقل.

البند الثاني

المؤيدات النصية (قرآن وسنة) للوحدة أو التنسيق بين فصائل الصحوة

إن الاستفادة من تجارب الذات ومن تجارب الآخرين، وأخذ العبرة من كل ذلك، والانطلاق بحركة الجماعات والتنظيمات على ضوء تلك الفوائد والعبر، أمر مطلوب شرعاً وعقلاً: فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

إن التجربة العالمية الماثلة أمامنا الآن تقول: بعدم استطاعة النظم

---

(١) آل عمران ١٠٣.
(٢) الأنفال ٧٢.
(٣) الأنفال ٧٣.
(٤) الأنفال ٧٣.

السياسية الشمولية المغلقة الدفاع عن نفسها تجاه الأزمة التي أحاطت بتلك النظم في العقد الأخير من القرن الماضي، وذلك نتيجة الاحتكار السياسي السائد داخل تلك النظم، وانغلاق فئة أو حزب أو مجموعة حاكمة على نفسها، مغلقة السبل أمام الرأي الآخر وتلاقح الأفكار، ومعرضة عن كل نقد ذاتي بناء، مما أتاح في نهاية الأمر حسم الصراع لصالح التعددية وانفتاح النوافذ والأبواب على مصاريعها أمام موجات من الآراء والجماعات والأحزاب، لتشارك في صنع القرار العام، وذلك من أجل إنقاذ سريع لعملية الانهيار وبناء أفضل للإنسان.

هذه التجربة تجعلنا نؤكد ونشدد التأكيد للمبدأ الشرعي والعقلي القائل: بأن الاختلاف في الرأي أو وفي وجهات النظر، أمر فطري عند الإنسان، يتعلق بأصل الخلق وبالفروق الفردية في الذكاء وبالقدرات والمهارات الذهنية المكتسبة والخبرات الحياتية. كما أنها تجعلنا نؤكد أن هذا المبدأ هو عامل إثراء وإغناء وتصحيح وإنقاذ، إذا أحسن استخدامه عند التطبيق والتنفيذ، وقد قال مالك لأبي جعفر المنصور في هذا المعنى كلاماً رائعاً، عندما أراد هارون الرشيد أن يحمل الناس على الموطأ: (إن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في الآفاق[1] وكل عند نفسه مصيب) وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ...﴾[2].

لكننا نقول والأسف يعتصرنا: إن الحركة الإسلامية المعاصرة، قليلاً ما وُفِقت إلى حسن استخدام هذا المبدأ، في سبيل بناء حركة واحدة منسقة الأجنحة، تنظر في الظروف والأحوال والمواضيع من جميع زواياها.

بل إن الأمر حدث بصورة عكسية، فبدلاً من التوفيق، وتنسيق الصفوف، وجمع المتفرقات في ضمة واحدة، فيها: الوردة الصفراء، والحمراء، والبيضاء، يعطي كل منها لمجمل المنظر تناسقاً وجمالاً وتوفيقاً، بدلاً من كل ذلك راحت الألوان تتنافر، وتتباعد وتعطي للصورة معنى قلقاً مشوشاً محيراً، وفي كثير من الحالات مبذراً للقوة، ومبدداً لها. وكأن فصائل الصحوة لم تعلم أن الإسلام وحركته مرت في غير وقت من الأوقات، منذ عهد رسول الله ﷺ وحتى اليوم، بمثل هذه الخلافات الفرعية في الأفهام والاستنباط، ولم يؤثر كل

---

(١) كتاب (الآئمة الأربعة- حياتهم، مواقفهم، آرائهم) إعداد عبد العزيز الشناوي ص٢٤.
(٢) هود: ١١٨ - ١١٩.

ذلك على تناسق الحركة ووحدة الصفوف..؟! وكأن مسلمي عصرنا لم يعلموا أنه ليس مثل التعصب والتحزب عاملاً فاعلاً للتشتت والتفرق والتنازع وذهاب الريح! وكأننا بهم قد وقعوا على مجتمعات معافاة من كل الأمراض الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فتفرغوا جميعاً لافتعال الخلافات الحركية والفرعية، تاركين هذه المجتمعات التي يتفقون على أن فيها كثيراً من التخبط، وأن عليهم كثيراً من المهمات التي أوجبها الله على أفرادهم وعلى جماعاتهم، في سبيل إنقاذ مجتمعاتهم مما فيها من زيغ وميل عن دين الله وعقيدته ومنهجه!

أليس بيننا كتاب الله، ونؤمن بما جاء فيه، ونعظمه ونعليه مهما اختلفنا في فروعه؟ أو ليس بيننا سنة رسول الله ﷺ، نُجْمع على حجيتها، وننزلها المنزلة العالية الرفيعة، رغم ما تذهب إليه أفهامنا من اختلاف حول فهم بعض فروعها أو حول تخريج نصوصها أو حول دلالتها؟

أو لسنا متفقين جميعاً على أن الأولوية في هذا العصر لحركتنا الإسلامية الراشدة تتركز على قضية محورية هامة هي: إقامة هذا الدين كاملاً في مجتمعاتنا؟

إذن، فعلام نذهب بعيداً وراء الخلاف في الفرعيات، وقد وحدنا الله في الهدف والمنهج النقي بأسسه وقواعده الكلية؟ وكلنا يقول مع الشاعر:

أبـــي الإســـلام لا أب لـــي ســـواه إذا افتخـــروا بقـــيس أو تمـــيم

وكما قال زيد ﷺ: (فحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلماً)، ثم بعد هذا الاجتماع فَلتُعْطَ للأنظار والأفهام كل مجالات الإغناء والإثراء والسير بحركة صحوة الإسلام الحديثة من غير كبت يقع على الرأي والرأي الآخر، ما دام الجميع داخل دائرة الإسلام والأهداف الواحدة، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وبدون هذا الاجتماع تكون الفرقة، والفرقة أخت الكفر، وقد عبر عنها رسول الله ﷺ بهذا المعنى عندما قال في الحديث الصحيح الذي جاء في خطبة حجة الوداع ألا لا ترجعن بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض) أي لا ترجعوا بعدي متفرقين في دينكم، مختلفي الصفوف، رغم أن الله جمعكم وألف بين قلوبكم، فالتفرق على هذه الصورة عواقبه وخيمة والعياذ بالله.

أ- النصوص القرآنية الحاضة على وحدة الصف الإسلامي

* الأخوة في الله، ووحدة الصفوف الإسلامية على أساس هذه الأخوة كانت

ولا زالت وستظل من أهم المبادئ التي حض عليها الإسلام، ودعا إلى التمسك بها سبيلاً لكسب الجولة مع الكفر والشرك.

* ويجب ألا يمر المسلم بحقائق معينة فرضها الإسلام على أتباعه مروراً عابراً، فالعبادة الواحدة الموحدة بالشكل والوقت والحركات المتوجهة إلى رب واحد وقبلة واحدة تربط كل من يقوم بها بأمة واحدة من لدن آدم وحتى يوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس هذا إلا إشارة عميقة إلي وحدة الأتباع، وإلى افتراض هذه الوحدة عليهم، بحيث لا تتحقق لهم قوة ولا منعة ولا انتشار إلا من خلالها وبها، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(1).

* وفي مكان آخر من القرآن الكريم، أمرنا ربنا أمراً قاطعاً بالوحدة والاجتماع على دينه وحول عقيدته، فقال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾(2).

* وعدَّ ذلك منة منه تعالى منّها على المؤمنين، إذ قال ربنا في تمام الآية السابقة: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾(3).

* وما أروع الدعوة إلى الوحدة العضوية بين مجموعات المؤمنين، إذ يقول ربنا جل وعلا: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾(4). وهل أراد الله لنا معشر المسلمين المؤمنين في كل عصر، (الذين هم دعاة دينه، وحملة شريعته ورواد طلبة دولة الإيمان) إلا أن نكون رحماء بيننا متعاطفين مجتمعين على الأخوة

---

(1) آل عمران: ٣٣ ــ ٣٤.
(2) آل عمران ١٠٣.
(3) آل عمران ١٠٣.
(4) التوبة ٧١.

والمحبة والهدف، ضاربين بالفرقة والأثرة والتعصب عرض الحائط، فقال لنا، داعياً إلى ذلك وآمراً به ومحبباً له: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[1].

* ثم أمر رسوله بأمر ناجز التنفيذ في حال حياته، وهدي يجب أن يُقتدى به بعد لحاقه بالرفيق الأعلى، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. هذا إن أردنا أن نبقى مؤمنين. فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

ولقد كانت كلمة القرآن فينا صريحة في هذا الاتجاه، هادية موجهة للحركة العامة ولكل من يتصدى للعمل تحت راية هذا الدين فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[3] فهذه الكلمات دعوة صريحة إلى التعاون والاجتماع. وأي بر أكبر من تنسيق الحركة واجتماع الكلمة ودحر الشيطان الذي يبعث جنوده لذر الفرقة والتشتت؟ وأي إثم أكبر من تنابذ المسلمين وتفرق كلمتهم وتنافسهم غير المنسق وغير المبرمج على ساحات العمل بما يحير ويحبط؟.

* ولقد بلغت دعوة القرآن إلى الوحدة ذروتها حين بين بعض الخصائص العالية في العلاقة بين المسلمين؛ من الحب، إلى الإيثار العالي الذي يقدم فيه المسلم على تكريم المسلم رغم حاجته وضيق ذات يده.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[4].

فقد تسابق المسلمون من الأنصار، لاستقبال إخوانهم من المسلمين

---

(١) الفتح (٢٩).
(٢) الحجر (٨٨).
(٣) المائدة (٢).
(٤) الحشر (٩).

المهاجرين، وآثروهم بالمتاع والحاجات على أنفسهم مع حاجتهم، ولم يكونوا يعرفونهم من قبل، ولم يكن بينهم صداقات أو مودات سابقة.

إن الوحدة بين فصائل الصحوة الإسلامية مطلب، يجب أن يرتبط بالحقيقة الكونية القائمة على وحدة المصدر، الذي يتلقى منه المسلم كل تصوراته وأوامره وقيمه، ولنصغ إلى (سيد قطب رحمه الله حين قال: «وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صنفاً واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله، تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم»[1].

والصحوة اليوم بفصائلها المشاركة في ثورات شعوب العرب والمسلمين مدعوة دعوة جازمة حازمة لتنسيق المواقف ووحدة الصف، ليكون لها حضورها ومكانها ومكانتها في مآلات ما يجري، ولتكون لها كلمتها المسموعة وفعالياتها المرجوة.

ب- الآيات التي تندد بالفرقة

ولقد جاء التنديد بتفرق الصف وتناحر فصائله منسجماً مع الهدف والطريق المتمثلين بالوحدة الخالدة المقدرة من الله لهذا الكون، تلك الوحدة التي جمعت كل المتقابلات، في هذا العالم المتكامل الخلق، من أصغر حشرة أوجدها الله فيه، إلى أخطر وأعظم مخلوقاته.

إن فساد ذات البين بين مجموعات الصحوة الداعية إلى إقامة دين الله في الأرض من جديد، لهو الحالقة لكل هذه المجموعات، لذا جاء الأمر من الله للمؤمنين بالحزم والجزم، واعتبار فساد ذات بينهم مقابلاً للتقوى ومضاداً لها.

وقد كان النص القرآني واضحاً في هذا الاتجاه فقد قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

---

(١) في ظلال القرآن/ المجلد السادس/ الجزء الثامن والعشرون صفحة ٣٥٢٧/ طبعة دار الشروق.

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] .

ثم يأتي النص القرآني الآخر ليبين أن سبب التفرق والتشتت هو البغي البغيض، والزيغ عن طريق الحق، فقال الله جل من قائل: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[2].

ومن ثم يأتي الهجوم الجازم على الفرقة، والتنديد بها والحض على عدم الوقوع في حبائلها لئلا يكون المسلمون المنتظمون في صف الصحوة الإسلامية من المشركين، وهي صورة راعبة للمسلم: أن ينظر إلى نفسه، فيجدها أمام الله تعالى شبيهة بالمشركين، وذلك لما أحدثت من فرقة، وكرست من خلاف مع المسلمين الآخرين، رغم اتفاق الأهداف.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3] وتأتي الآية الأخرى مدعمة للأولى في المعنى نفسه لتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[4].

فهي تبين أن الرسول ﷺ شانيء لكل من يفرق صف المسلمين، ويجعله مزقاً وشيعاً، تتناوشه الأهواء ويحبطه التنازع في الشكليات والفرعيات، لتصبح كل فرقة أو حزب أو مجموعة وكأنها تدعو إلى دين غير الدين الذي تؤمن به الأخرى، أو تخطط خططاً في الدين، بعيدة عما تخططه المجموعة الأخرى.

وفي ختام هذا الاقتباس من كتاب ربنا جل وعلا، لا يفوتنا أن ننوه إلى النتائج التي تترتب على الفرقة والخلاف، كما رسمتها السنن الربانية التي لا تتبدل، إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .....﴾[5] يا للهول!

فهل يجوز أن يمضي الركب في طريق التنازع، بعد معرفة هذه النتيجة

---

(١) الأنفال (١).
(٢) آل عمران (١٩).
(٣) الروم (٣١) (٣٢).
(٤) الأنعام (١٥٩).
(٥) الأنفال (٤٦).

السننية، التي تترتب على السير في متاهات هذه الطرق، المشتتة لصف الصحوة، المحولة لها إلى فرق وأحزاب متناحرة وحتى متباغضة؟

لا نعتقد أن عاقلاً يرضى لنفسه هذا المآل الدنيوي، بله الآخروي، إلا أن يكون هذا المرء سائراً على خطا المثل الذي اتبعته عَمِيّات الجاهلية قبل الإسلام، حيث كان الشعار السائد المنظم للعلائق: (كذاب ربيعة أفضل من صادق مضر).

ج- تمهيد أمام نصوص السنة

إن وحدة الألوهية عند المؤمنين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وإن وحدة الهدف من الحياة عندهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

ووحدة المآل بعد هذه الدنيا في اعتقادهم: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ووحدة المنشأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

ووحدة الرجوع إلى نظام تشريعي واحد في أمور الدين والدنيا أثناء حركتهم اليومية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4].

كل ذلك يشكل بواعث وحوافز، تحث المؤمنين على توحيد صفوفهم، أو تنسيق حركاتهم وأعمالهم، التي يبتغون بها وجه ربهم، فلا تعوقهم محليات

---

(١) البقرة (١٦٣).
(٢) الذاريات (٥٦).
(٣) الحجرات (١٣).
(٤) الحشر (٧).

ولا إقليميات عن التواصل والاتحاد، أو التنسيق ورسم الخطى باتفاق وتوافق، لا تفرقهم الأغراض وأوهام التناقض في الأساليب واختلاف الوسائل، لأنهم يعلمون أن كل ذلك نزغ من نزغ الشياطين، وفتنة أدخلتها عليهم وأسكنتها في أفكار البعض مناهج دخيلة، ضُخِمَتْ في النفوس بشكل مقصود.

إن التواري خلف كل تلك الحجب السميكة المفرقة، من أجل الاحتفاظ بمبررات التنازع والتشرذم، لهو البلاء الذي يبتعد بالخطاب الإسلامي عن معاني المصداقية، التي وحد بها رسول الله ﷺ أمة كانت متنازعة، وذلك منذ أول كلمة إلهية ألقاها جبريل في روعه، فهل نأتي الآن بعد أن وضحت أمامنا معالم التجربة التوحيدية، من خلال التاريخ الناصع لأول خطاب إلهي ساس الناس في حركتهم اليومية؛ هل نأتي لهدم كل ذلك متذرعين بمعاني الفرقة الجائرة، مؤسسين عليها أبنية هي في واقع الأمر ليست إلا تفريقاً للصف الإسلامي وتنازعاً يحركه الهوى، الذي لا يستند في الحقيقة المرة إلى أي حجة حقيقية؛ إذ إن غالبية الفرق أصبحت أحزاباً وفرقاً متنازعة، وليست دعوة واحدة متعددة الاختصاصات والأساليب والأشكال؟

والنصوص التي صحت عن الرسول ﷺ، - الداعية إلى التوحيد والتكافل، والتشاور والتنسيق والتآخي- كثيرة، منها: ما هو بالاتجاه الإيجابي، الحاض على هذه المعاني التي أوردنا، ومنها: المنفر من الفرقة والتباغض والتنابذ.

د- النصوص ذات الاتجاه الإيجابي

تبدأ هذه النصوص في الحض على التقارب والتراحم والتحاب، مثل: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[1]، ومثل: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) [2].

فمنذ أن تبدأ أخاك بابتسامة، تبعث بواسطتها رسل الحب والود والعلائق السليمة، تقود سبل الدعوة الحق خطواتك إلى حيث تضعك في خضم تنفيذ أخلاق رسول الله ﷺ، التي استمال بها قلوب العرب والعجم، ووحد بها صفوفهم ضمن الخطوط العامة لدعوة الله، التي تتيح التعددية في الفهم وفي الوسيلة والتخصص، دون الذهاب داخل دهاليز الفرق والجماعات ذات الأهواء والأغراض الغريبة، يسبّ بعضها البعض الآخر، أو يحسده، أو يضع في طريقه العراقيل والعقبات.

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

فخلق الرحمة بالمؤمنين والسير على سير أضعفهم خلق أسر به رسولنا محمد ﷺ قلوب العباد، فهو عندما يؤدب المسلمين بقوله ﷺ: (من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك، أو ليقبض على نصالها، يكفه أن يصيب أحداً من المسلمين بشيء)[1]، إنه بذلك يجعل حس المسلم مرهفاً، تجاه أي شيء يؤذي أخاه المسلم، حتى من الوخزة البسيطة غير المقصودة.

وهو (أي رسول الله ﷺ) عندما يتجه بسلوكه العملي إلى الرحمة بالمؤمنين، برقة وحنو، حسبما روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: (إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم)[2] إنما يذهب بعيداً وعميقاً، في مراعاة أوضاع النفس الإنسانية ومحاور حركتها حول دعوة الله، مما يوجب على دعاة اليوم أن يقفوا ويتأملوا كثيراً في مثل هذا السلوك القيادي الرفيع، الذي يتعرف على شوارد نفس الأتباع والأصدقاء، ويعاملها بما يجعلها تقبل على إيمانها وعقائدها بكل التوق والشوق والانعتاق من أسر المعوقات والأسوار التي تحيط بالحركة وتكبلها، عندما تكثر اللاءات والممنوعات، ويكثر الخلاف في الفروع بلا حساب، كما يحدث اليوم، داخل بعض الفصائل، أو فيما بينها، عندما يُقصِّر فرد أو مجموعة في قضية فرعية بسيطة، أو حكم اجتهادي مختلف فيه.

ولقد ذهب رسول الله ﷺ في خلق الرحمة هذا مذهباً عظيماً؛ وذلك قوله: في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: (إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء) وفي رواية زاد (وذا الحاجة).

صلى الله وسلم وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله، أين تعاليمك وهديك من سلوكنا نحن أصحاب الدعوة اليوم؟ يجلد بعضنا ظهور البعض الآخر، لأن فلاناً قصر في القراءة عندما أمّ، أو لأن فلاناً لم يحرك أصبعه في التشهد، أو لم يرفع يديه في تكبيرات الانتقال من ركن إلى ركن في الصلاة، أو أي حكم اجتهادي مختلف عليه عند الأئمة في الفروع، التي لا تؤثر في مصير أية قضية إسلامية على الإطلاق.

إن خلق الرحمة هذا، الذي أراد لنا رسول الله ﷺ أن نبدأ به طريقنا في التعارف والاجتماع، هو الذي نفتقده في حركاتنا الإسلامية في هذا العصر، ولو توفر لنا هذا الخلق، لسلكنا من خلاله سبل التقارب والوحدة أو التنسيق

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

والتفاهم. فمن عند أطراف هذا الخلق نلج إلى الأخوة الإسلامية الحقة، ومن بداية هذا الخلق ندخل إلى متن الوحدة، التي وصفها رسول الله ﷺ، ووضع خصائصها في الحديث الشريف عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١).

فهو إذن جسد واحد، مع أن كل عضو له اختصاص ومسلك وعمل يؤدي به جزءاً من الحركة العامة المتساوقة، التي توصل إلى مهمة واحدة، هي قيام هذا الجسد وتكامل بنائه وارتفاع قامته، كل ذلك من خلال تعاون وثيق وعلاقة أخوية حميمة، بحيث إذا تعطل عمل عضو واحد أدى ذلك إلى اختلال في سائر الأعمال، وتخلخل عام في الجسد القائم، وبهذا الفهم الكامل لعمل الحركة الإسلامية، تستطيع أن تنطلق فصائل هذه الحركة اليوم وصحوتها، نحو الهدف العام الواحد بصحة وعافية، وبغير هذا الفهم فستبقى حركتها سقيمة عليلة، ولن يترك المجال لمفاهيم الأخوة العميقة التي أرادها رسول الله ﷺ معالم بارزة، تؤشر إلى نجاح المسلمين، وتبني جدرانهم المتينة، من خلال تعاليمه القويمة، التي تضع اللبنة إلى جانب اللبنة أو فوقها بترتيب عجيب يدخل إليك من باب: «أن المسلم أخو المسلم، فهو لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(٢). بهذه الروح نأوي إلى الرحمة، وندخل إلى الأخوة، ونسلك سبيل الوفاق والاتفاق والوحدة.

وبها نصبح كالبنيان كل عنصر فيه له مهمة، وتصبح العناصر بمختلف أشكالها ووسائلها وطرائقها مشدودة برباط واحد، بحيث يصبح كياناً واحداً يحرص كل فرد فيه على الآخر حرصه على نفسه، فهو يعلم أنه بغير ذلك الرباط لن يكون البنيان أصلاً.

هـ- النصوص الناهية عن الفرقة

وبالمقابل وتوجيهاً من رسول الله ﷺ إلى أمته: بفرعي التربية (الترغيب والترهيب) فإنه ﷺ حض المسلمين أفراداً وفصائل للاجتماع على روح الأخوة والمحبة في الله، متواصلين متحدين حركة وعملاً، فلا يتركون مكاناً في صفوفهم للتحاسد والتنافس غير الشريف على ساحات العمل، لأنهما يحبطان أعمالهم عند الله ويقتلان نتائجها في الدنيا.

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

وفي هذا المجال جاءت الأحاديث التي تنفر من أخلاق معينة، يكون لها تلك النتائج الوخيمة على المسلم كفرد وعلى الجماعات الإسلامية. ومن هذه الأحاديث:

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((كل المسلم على المسلم حرام: عرضه وماله ودمه. التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)) [١].

ب- وعنه قال: قال رسول الله ﷺ لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً.

المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)[٢].

إنها مبادئ عظيمة وقويمة، وصدق الله العظيم إذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٣].. وإنك لتنظر إلى كل كلمة من التي قيلت في الحديثين فتجد أنها سبكت لتكون في مكانها المناسب من مجموع الحديث، ولتجد بالتالي الوقع العميق في نفس المسلم وحسه وسلوكه، حيث تجعل من حركته بعد ذلك حركة منسجمة مع هذه المعاني والمباديء التي لو التزمها المسلمون – أعضاء الصحوة وأبناؤها - لحل في ديارهم خير كثير ما يزالون يفتقدون ظله، فهم كلما نظروا إلى ساحتهم، وجدوا ظلماً سائداً، وفرقة تجعلهم بين مشرّق ومغرّب، وخذلانا يصل إلى حد الشماتة أحياناً.

ولو أننا في هذا العصر وعينا عملياً معنى الجملة (ولا يبع بعضكم على بيع بعض) ثم عملنا بها لتجنبنا كثيراً من المفارقات العملية في ساحة الأخوة، فيما يقع بين الأفراد من جهة، وما يقع بين الفصائل من جهة ثانية.

ولو أوغلنا برفق في معني الجملة لما قصرناه على المعنى المتبادر إلى الذهن، الذي يحرم بيع السلعة وشراءها فوق الشراء الأول، بل إنه ينطبق على ساحة التنافس ضمن نطاق شعارات الدعوة الإسلامية والمدعوين إليها، حيث تثار المعارك الجانبية، التي تستنفذ الطاقات بدون طائل.

ولو أن مسلمي عصرنا أفراداً وجماعات أنصتوا إلى نبيهم يناديهم

---

(١) الترمذي وقال حديث حسن.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.
(٣) سورة النجم (٣، ٤).

ويضيء لهم الطريق إلى الجنة حيث يقول في الحديث الشريف عن أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[١] فالسلام هو طريق الحب وهو السبيل إلى بناء العلاقات الوثيقة والروابط المتينة، وهو بالتالي طريق الفوز في الدنيا والآخرة، والحديث دليل هاد، يجب أن يدخل قاموس التعامل اليومي في حركات الصحوة الإسلامية المعاصرة ومَن غير رسول الله ﷺ يستطيع أن يجمع المسلمين في كل حين وزمان، حول العلامات الهادية؟ وهو الذي اختط لنا الخطط، ومهد لنا السبل بسيرته وقوله وعمله، ولم يدع لنا مجالاً للخطأ، ما دمنا على سنته وسنة الخلفاء المهديين من بعده، وإنها لمحجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد علق فضيلة الشيخ سيد سابق في كتابه القيم فقه السنة، في بند علاقة المسلمين في حركتهم الداخلية بقول جميل نقتبس منه ما يفيد إن شاء الله.

جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب ويضم الصف إلى الصف، مستهدفاً إقامة كيان موحد، ومتقياً عوامل الفرقة والضعف وأسباب الفشل والهزيمة ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالته.

فهو لهذا كله يُكَوِّن روابط وصلات بين أفراد المجتمع، لتخلق هذا الكيان وتدعمه... وأول رباط من الروابط الأدبية هو رباط الإيمان.

وطبيعة الإيمان تجمع ولا تفرق وتوحد ولا تشتت «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». والإسلام يدعم هذا الرباط، ويقوي هذه العلاقة بالدعوة إلى الاندماج في الجماعة والانتظام في سلكها ... «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار»[٢] (والمقصود هنا جماعة المسلمين الموحدة الصفوف بكل مكوناتها): (الجماعة رحمة، والفرقة عذاب).

ولقد نهى الإسلام عن الفرقة أشد النهي إذ إنها الطريق المفتوح للهزيمة، ولم يؤتَ الإسلام من جهة كما أُتي من جهة الفرقة.... ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾[٣].

ونختم هذا الاقتباس بحديث رسول الله ﷺ «إن أحدكم مرآة أخيه، فإن

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) حديث رواه الترمذي وقال عنه حديث حسن.
(٣) الروم/٣١ -٣٢/.

رأى منه أذى فليحطه عنه». لعل بعضاً من المسلمين يتذكرون فلا يتشفون بالأذى يرونه في أخيهم بل يعينونه ويحملونه، ولعلهم من خلال إفشاء السلام ينتقلون إلى الحب، ومن ثم إلى الوحدة وتنظيم الصفوف وتنسيق العمل، والخروج من دائرة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1] ، إلى دائرة تعاليم نبيهم، عندما سألوه عن الأمر يحدث لهم بعده وليس فيه هدي منه. إذ قال: اجمعوا له العالمين من أمتي، واجعلوه بينكم شورى، ولا تقضوا فيه برأي واحد.

البند الثالث

أ- المؤيدات التطبيقية للوحدة:

عندما ابتدأنا بحثنا هذا قلنا في الحلقة الأولى فيه: (والصحوة الإسلامية أمام هذا العالم المتخبط الحائر الواقف عند الأبواب المجهولة المدى، تمثل شمعة تحاول أن تضيء عتمة هذا العالم المعرض عن الهدى).

وتؤكد التجارب يوماً بعد يوم ما قلناه بشأن خطاب الصحوة المرتبك، كما تؤكد تلك التجارب والأحداث أن حجم التحديات التي كنا نتوقعها أكبر وأبعد في التأثير، كما أنها أثبتت – أيضاً وبصورة قاطعة – أن الخطاب الإسلامي على المستوى السياسي والدعوي فيه من القصور ما لم نكن نتصوره، مما يؤكد واجب الانطلاق السريع غير المتأني إلى مواجهة التحدي بعنفوان المسلم المتبصر العارف بالداء واستفحاله، المتحرق إلى استئصال شأفته، وإزالة كل العقبات التي تقف دون إنقاذ أمته، ووضعها على خط السير السليم الذي تنشده وتناشد به شعوب الأرض جميعاً، بعد أن كلت الأقدام العارية من الخطو فوق أرض الحرات الأيديولوجية الباغية الغريبة.

إن الحركة الاجتماعية والسياسية في التجمعات العالمية موّارة، وتكاد لا تلاحق، وإن مسألة الوقت هامة، بل هي مسألة سباق بالنسبة للحركة الإسلامية، فإن لم تبادر بالسرعة الممكنة فستكون مسبوقة، وسوف تخلفها الحركة السريعة للأحداث في المؤخرة، تنادي وتناشد، ولكن الركب ليس لديه من الوقت للالتفات إلى الوراء.

وإن ما تنشده الشعوب في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ العالم يتلخص بما يلي:

---

(١) الروم آية: ٣٢

١. نظام سلام عالمي ينفض عن كاهلها ران التهديد الدائم بالفناء، ويبني علاقاتها على أسس وطيدة من الأمان.
٢. نظام اقتصادي عادل، يخفف من النفوس داء الحسد، والتطلع إلى ما في يد الغير، وينبذ داء الترف.
٣. تقارب تجتمع فيه الشعوب على الحد الأدنى من الفطرة الأصيلة، بحيث تجعل لغة التفاهم فيما بينها سهلة متداولة بينة، فلا تفقد أي مكسب نافع من مكتسبات الحضارة.

ولا تملك أي من شعوب الأرض الوسيلة الناجعة التي تحقق كل ذلك، إلا أن الشعوب المسلمة عندما تحمل الإسلام وتعرف كيف تصوغ خطابه لتجمع الناس عليه، هي مناط الإنقاذ وموئل صحوة العالم.

وهذا يقتضي من الصحوة الإسلامية كما أوضحنا سابقاً أن تقدم نفسها للعالم بصوت موحَّد حول الأساسيات، وبصياغة بعيدة عن التعصب واللغة الفوقية ذات البنية غير الملائمة لعصرنا، فقد نجحت أمة الصحوة في علاج بيئات عديدة من قبل، ولكنها تعجز الآن لأن الظروف مختلفة.

إن معالجة الحاضر، وتقديم الإسلام إلى الناس، بخطاب فيه الكثير من الخلل، بعيداً عما يفهمونه وما يحلمون به، لا يمكن أن ينجح مقدماً من خلال الأصوات المتعارضة، أو من خلال الفرق المتصارعة على الساحة، المتتبعة للعورات، تنثرها في طريق الآخرين، لتكسب لنفسها سوقاً، في حين أنها بهذا السلوك تخسر نفسها وتخسر الآخرين، كما أخبرنا رسول الله في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داوود بإسناد صحيح عن معاوية رضي الله عنه قال: «إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». فكيف بكم وأنتم تريدون إنقاذ العالم، وهو في غالبيته بعيد عن الإسلام؟

وهناك لطيفةُ نظر في الآية الكريمة ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[1] فقد جعل هارون عليه السلام حجته في عدم دحض الخطأ الذي وقع به بنو إسرائيل خوفه من تفرقهم لو أمرهم أو نهاهم.

فكم هي (الآية) شديدة الحساسية تجاه تفرق الصف؟ وما هذه الشدة في الحساسية إلا لفحش النتائج التي تترتب على الفرقة. وبناء عليه جاء نص

---

(١) طه (٩٤).

الفقهاء على منع العمل على إزالة منكر إذا كان ذلك يؤدي إلى منكر أكبر.

إن اجتماع فرقاء الصحوة الإسلامية أصبح فرضاً تفرضه الأحداث الجسام، مع فرضيته الشرعية التي نوهنا إليها فيما سبق، فلم يعد من المتصور عملياً أن تبقى الفصائل الإسلامية متباعدة متفرقة.

وإننا لنفترح في هذه الأيام الحاسمة التي تدق فيها التحديات على الأبواب ما يلي:

أ. أن تتداعى الفصائل إلى اجتماع عام، في مكان يتفق عليه يجتمع فيه مندوبون من كبار كل فصيل.

ب. أن يكون الاجتماع محدد الأهداف.

ج. أن يخرج الجميع بميثاق عمل موحد يجمع كل نقاط اللقاء: مثل الأهداف وتحديد وسائل العمل، وتقاسم المهمات، مع إقامة أمانة عامة موحدة للمتابعة وتنسيق الحركة.

د. أن يخرج الجميع بخطاب إلى العالم يستوعب كل الأحلام التي تراود شعوبه وقطاعاته في ضوء الشرع الحنيف، ويكون هذا الخطاب بمثابة نداء إلى هذه الشعوب، تجتمع عليه، لتحقق أمانيها.

هـ. نشر هذا الخطاب بأعداد وبلغات تستوعب كل أنحاء المعمورة، بحيث نؤدي بذلك واجب التبليغ إلى كل فرد وواجب الإعذار إلى الله، ويكون الخطاب بمثابة إعلان إسلامي عالمي ينضم إليه كل مؤمن بكرامة الإنسان.

و. أن يكتب الخطاب بلغة عصرية مفهومة من الجميع، لا يشتم منها رائحة التحيز أو الفئوية أو الفوقية.



المبحث الثاني من الباب الأول

التحديات المعرفية /العلمية والعملية للصحوة

أولاً: تحديدات

داخل سفر الصراع الإنساني وفي طياته نتوقف عند كثير من الإشراقات النفسية التي أعطت للحياة نُسغاً نقياً سائغاً شرابه، وبالمثل فإن كثيراً من الآفاق المكفهرة استطاعت - ولآماد غير مقيدة - أن تمرغ الصفحة الإنسانية بكاملها بلون رمادي قاتم، لم تر البشرية خلاله إلا بوارق خافتة من أشرعة النجاة..

ولقد كانت رسالة نبينا محمد ﷺ التي حملت دين العدل والرحمة والنور إلى البشرية جمعاء، كانت تلك الرسالة نسغاً نقياً سائغاً، سعدت البشرية بتساقيه زمناً غير قليل، قبل أن تخفت توقيعاته فوق الأرض، بعد أن تقاعس حاملوه، وتراجعت جذوة شعلته في قلوبهم، تحت ضربات الأعداء من أصحاب الدنيا الغرورة، المهيمنين على الإنسان الخاوي، ذي الأطماع والأحقاد، متناسين الناموس الخالد الرباني القائل﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١).

ولقد اتبع أولئك الأعداء في إدارة دفة الصراع مع الصفحة الناصعة لدين الله كل الوسائل التي تلطخ جبين البشرية بالعار، مؤملين من وراء ذلك أن تتوارى الشعلة مرة واحدة وإلى الأبد، ليتسنى لهم بعد ذلك أن يقودوا البشرية على هواهم دون مناجز....

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويستدير الزمان كهيئته يوم أن جاء هذا الدين بطلعة محمد ﷺ، لينير الظلام الذي أغلق على ناس ذلك الزمان سبل العيش الحر الكريم، وتتكاثر بوارق الأمل، وتتجمع في الأفق مزن الخير والفلاح، ويتهيأ الزمان والمكان، ليضع الناس على محك الانحياز لإحدى جبهتين لا ثالث لهما: جبهة الاستكبار والضلال. وجبهة عباد الله المتشحين بالعدل والكرامة الإنسانية والحرية والهدي الرباني. وبذلك تتضح معالم الصراع

---

(١) الأنبياء (١٠٥).

القادم، وتنتفي حجج المختبئين خلف وهم الضلال الذي عوّم تلك المعالم القاتمة على مدى زمن طويل.

وها هي الصحوة الإسلامية تطل علينا ببشاراتها في وداع قرن زمني ودخول من أبواب قرن جديد. وها نحن جزء منها، نريد لها أن تدخل معمعة الصراع وهي أشد ما تكون قوة وكمالاً وفهماً ودراية بأدواته وأولوياته.

وكما قلنا من قبل فإن النقد الذاتي ومعرفة أماكن الثغرات ومحاولة سدها هو سبيل التحصين والتمتين للصحوة في ساحة الصراع. وضمن التحديات الداخلية تأتي عملية تعميق المعرفة.

١. يأتي على رأس المهمات والأولويات في برنامج الصحوة الإسلامية وفصائلها أن تؤمن لأفرادها معرفة عميقة وعملية بما يدعون إليه، بحيث يكون الإسلام متمثلاً تمثلاً عملياً غالياً في سلوكهم وتصرفاتهم وحركتهم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

مقتدين بذلك بعمل الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كانوا لا يغادرون الآيات العشر حتى يتعلموهن ويعملوا بهن.

٢. كما يأتي في باب الأولويات اللازمة التي يجب تعميقها والتدرب على اتباعها وتعميق العمل بها قراءة الكتاب الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكأنها تتنزل الآن، فتقول كلمتها بأحداث الساعة، بحيث نضع لكل حدث أو مشكلة أو موضوع حلاً عملياً، مبنياً على أساس من تلك النصوص، ومنسجماً مع الحاجة الجديدة وروح المعالجة العصرية فلا نبقى أسرى الحلول التي وضعها سلفنا لأحداث وأوضاع جدت لهم وكانت مناسبة لعصرهم، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار هذه الثورات المباركة ضد الطغيان التي تشارك بها الصحوات بزخم وقوة. فنأخذ من تراثنا الفقهي المناسب لعصرنا، ونعالج منه ما يمكن أن يأتلف مع أحوالنا وظروفنا ونجتهد في فهم النصوص الاجتهاد المعاصر. غير معاجزين ولا محرفين.

---

(١) يوسف (١٠٨).

٣. يسود الصحوة الإسلامية قدر كبير من القصور في مجال النقد الذي يصحح خطوط السير ومسار الحركة، مما جعل مجال الإبداع والتصحيح لدى فصائل الحركة الإسلامية الحديثة قاصراً وضيق السبل، لذا فإن من أولويات التحديات التي تقع على عاتق الصحوة في الأيام القادمة معالجة هذا القصور، وبناء المنهج التربوي على أساس من إيجاد الفرد الواعي، ذي البصيرة النافذة البناءة.. وذلك يأتي على قدم مخاطبة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه للمسلمين.. عندما قال: «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني»...

٤. وفي المصاف الأولى للتحديات المعرفية التي تجابه حركة الصحوة وتأتي في مقدمة أولوياتها للمرحلة القادمة: فهم حركة شعوبها ومتطلباتها وكيفية الأخذ بيدها بعد أن وصلت حد اليأس من كل ما قادتها إليه الأفواج القومية والعلمانية، التي غطت مساحات أوطاننا بالدونية والتقليد والصراخ بالشعارات الخاوية، التي لا تعني بعد ذلك شيئاً إلا اليباب.

وبناء عليه فإن الصحوة مطالبة بالخروج من حدود العموميات والصراخ بالشعارات الخاوية، وهي الحدود التي إن لم تتجاوزها الصحوة إلى وضع البرامج العملية التفصيلية فسوف يبقى الخطاب الإسلامي قاصراً وغائباً عن مواكبة وقيادة الجماهير التي سئمت التجربة العلمانية الطويلة التي قادتها إلى الخواء.

٥. وتستتبع هذه الأولويات التي ذكرنا في البند الرابع أولوية متحدية أخرى، وهي تربية أفراد الصحوة وجماعاتها على تطبيق تلك البرامج وتنفيذها في المجال العملي داخل صفوف الصحوة وخارجها إن أمكن وهذا– طبعاً – يكون قبل مرحلة التمكين والدولة، حيث فعل ذلك رسول الله ﷺ في المراحل السابقة على قيام الدولة وتمكنها، فعلم الصحابة الصبر على ما يكرهون، وذلك حين شكوا إليه ما يتعرضون له من قبل قريش من عذاب وقسوة، وطلبوا إليه أن يستنصر لهم أو يدعو لهم، فأجابهمﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن

الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [2] وقوله جل من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[3].

وكذلك فإن في الحديث الطويل الذي رواه مسلم عن ابن عمر وجرير بن عبد الله رضي الله عنهما ويذكر فيه قصة قوم من مضر جاؤا إلى رسول الله ﷺ مجتابي النمار، متقلدي السيوف عراة تظهر عليهم إمارات الفاقة الشديدة.

لقد كان في هذا الحديث تربية عملية لمجتمع المسلمين على القيام بواجب التكافل والتعاون، ودفع الضر، والريادة في ذلك، ابتغاء وجه الله.

ولو أردنا أن نتتبع مجالات التربية العملية على خطط الإسلام ومبادئه الفذة لأخذ ذلك منا الكثير الكثير من الوقت ومتسع الصحف، إلا أننا نكتفي في هذا المجال السريع بهذين المثالين، ونترك التفصيل إلى وقت آخر، ندخل فيه بهذه المجالات.

٦. ولا يمكن للصحوة الإسلامية بجميع فصائلها أن تلهيها الجماهيرية العارمة التي تلتف حولها منذ بداية القرن الهجري الخامس عشر عن تلمس مواقع أقدامها بموضوعية وعقلانية، في خضم المتغيرات التي تكتسح كل شيء هذه الأيام، مما يقتضي منها تفحصاً دقيقاً لكل المعطيات، وهذا يستتبع تفحص عناصر مشروعها ومدى فاعليته تجاه ما يميز العصر القادم من وضع للعالم قصرت فيه المسافات، وتقاربت الأرض، بحيث أصبح الإنسان في هذا العصر في متناول يد التشكيل الإعلامي المهيمن، ذي الإمكانات الهائلة المدهشة في التغيير وبناء العقول والنفوس وصنع الأهداف وصياغة شكل الحياة. ولا يفوت الصحوة النظر في مواقع أقدامها وفي مفردات خطابها على ضوء ما جرى من توازن وحراك في شوارع الأمة وانتصار الشعوب للحرية والتغيير.

---

(١) البخاري.
(٢) محمد (٣١).
(٣) البقرة (١٥٥).

وبناء عليه فإن التحدي الكبير يكمن في الأولوية الملحة لمراجعة عناصر المشروع الحضاري الذي نتبناه وآلية إيصاله إلى الجماهير وإمكانية إقناعهم به، وكل هذا يقتضي من الصحوة معرفة عميقة بالحضارة الغربية العالمية السائدة وعناصر نفوذها وآليات ذلك النفوذ والتغلغل، بحيث تمتد الأبحاث إلى أعماق تلك الحضارة، لا أن تبقى على شواطئها وظواهرها الأخلاقية، متناسين ما لمؤسسات تلك الحضارة وهياكل تكوينها من أثر بعيد في توجيه العالم وانقياده لمضمونها ولآلياتها وشكلياتها، حيث إن هذه التكوينات أصبحت من البديهيات النظرية والعملية التي لا يظن أحد في هذا العصر أنه بالإمكان أن ينشأ إلى جانبها تكوينات مؤسسية أو أفكار عملية تتجه اتجاهاً له سمات متميزة ومناهج وهيكليات أخرى مختلفة.

٧. ومن التحديات الهامة التي تواجه حركة الصحوة في المجال المعرفي العملي: هي تلك التي تتمثل في كيفية التعامل مع مجتمعاتها، وكذلك كيفية التعامل مع الحكام، فلقد طغى على العلاقات خلال العقود الثلاثة الماضية أسلوب الشك والريب والعزلة، وذلك نتيجة الكثير من الممارسات العنيفة التي اتبعها الحكام وقابلها عنف من قبل بعض فصائل الصحوة في بعض البلدان، وبين العنف الرسمي والعنف المقابل، راحت الهوة تزداد، والفجوة تكبر وتكبر، وتنشأ على حواشي الحركة الإسلامية العامة وضمن خطوط سيرها بقع من الفهم الخاطئ لنصوص بعض كبار مفكري حركة الصحوة.

ومما نمّى هذه البقعة وأبرز ألوانها: الطريقة الخاطئة العنيفة التي تعامل بها بعض حكام الأمة وما زالوا يتعاملون بها، مع فصائل الصحوة بصورة عامة دون استثناء أحد، حيث يبدون للناظر وكأنهم ربطوا مصائرهم نهائياً بفهم الغرب لأي تحرك إسلامي مهما كان توجهه، غاضين الطرف عن حقيقة كبرى وهي أن هذه الأمة وشعوبها لا يمكن إلا أن تكون إسلامية، وأن قوة هذه الأمة ومكمن نجاتها يتمثلان في التمسك بهويتها، التي تبرز بالإسلام، ولا تعظم ولا تنتصر إلا به، وقد ذهب بعض هؤلاء في طريقة التعامل مع الصحوة متجاهلين مدها العظيم، وجماهيريتها الساحقة فتعاملوا معها وكأنها فقاعات معزولة عن بقية الموج، وكانوا بذلك كمن يعيشون خارج عصرهم، ولا يروق لهم التطور والنماء والتغيرات في صفوف شعوبهم، ومن هنا نشأت على الهوامش وفي الصميم أحياناً أفكار التفسير غير المنضبط بالقواعد الثابتة وسنن التغيير الإلهية، وساد الساحة التعاملية قدراً كبيراً من مخزون عدم الثقة المتبادل.

وعلى هذا فإن على الصحوة الإسلامية أن تقبل هذا التحدي وتضع له

القواعد السليمة، التي تضبط العلاقة مع المجتمع والحكام وفق إيقاع النصوص الشرعية المنبثق من فهم واع للأولويات وتقدير عال لمصلحة الحركة والأمة، ومعرفة دقيقة بما يدور على الساحة، تحسب فيها الخطوة تلو الخطوة، كي تتفادى الوقوع في الحفر، التي يزين لنا أعداؤنا الوقوع فيها، ليقوموا هم بدورهم بجلدنا، بالطريقة التي يريدون وبالزمان والمكان اللذين يختارون.

٨. صحيح أن حركة الصحوة تنطلق من فصائل قطرية، تشغلها هموم محلية تميز الواحدة عن الأخرى، إلا أن هذا التقسيم القطري للعالم الإسلامي عامة والعربي خاصة يجب أن لا يستوعب حركة الصحوة ويسحب منها الصفة العامة لدين الله، الذي بُعث به رسولنا الكريم ﷺ رحمة للعالمين، ورسالة شاملة كاملة لكل الناس في كل زمان ومكان، وفي حديث رسول الله ﷺ مع سراقة أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ووعده له بسواري كسرى كنز عظيم من المعاني التي يجب أن يتدبرها دعاة الإسلام في كل زمان ومكان، فالرسول ﷺ وهو المهاجر من مكة ناقلاً مجال الدعوة والرسالة، لم ينس في تلك اللحظة شمول رسالته وعموم دعوته، وإحاطة غايته، ولم تطغ عليه هموم اللحظة، ومشاغل القوم الذين بُعث فيهم عن الرمي بالنظر إلى بعيد، حيث تتميز هذه الدعوة، وتبرز بشمولها وعمومها على أنها الرحمة المهداة إلى العالمين.

ومن هنا يجيء هذا التحدي الكبير لفصائل الصحوة أينما كانت: وهو أن يكون لهذه الصحوة بجميع فصائلها القطرية والمحلية بناء فكري عام تلتقي عليه، فلا تفرقها الفرعيات، وبناءٌ عملي تنظيمي، يبني ويشيد إيقاع الحركة العالمية للصحوة، بحيث تطل على العالم بمشروع حضاري واحد متفق عليه، وتنسيق حركي يجمع الشتيت ويشق الطريق إلى الصميم.

إن العالم اليوم يتخبط تحت وطأة ديكتاتورية أحادية الرأس، تمتلئ بالكثير من الظلم، والحيرة وفساد الرأي وسوء التصرف واستعمال العلم والحضارة في سبيل الدمار والسيطرة العنصرية.

وهو لذلك لا يقبل إصلاحاً وهداية، من فرق متناحرة تزيده حيرة وبلبلة، بل يحتاج إلى عالمية هادية مهدية، تجمعها غاية واحدة هي إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، في حركة واعية لنفسيات الناس وطرق الوصول إليها، بالتدرج غير المبني على حرق المراحل، مع المحافظة على مكاسب العصر وإيجابياته.

٩. يطرح كل عصر وزمان مقومات فكرية وعملية وسياسية قد تختلف في كثير أو قليل عن العصور الأخرى السابقة، وعلى الذين يعيشون في ذلك العصر أن يكتشفوا القوالب السليمة والمنافذ العملية لتلك المقومات، ومن هنا يأتي الاختلاف بين أناس العصر الواحد، وذلك من خلال الاختلاف في الرأي حول أي القوالب أو المنافذ أسلم وأصح وأقدر على خدمة صالح الأمة والحفاظ على كيانها وهويتها.

وأمتنا العربية والإسلامية في العصر الحديث تعيش هذه التحديات الحضارية الحديثة، من منطلق التبعية، حيث إن كثيراً من المفاهيم المدنية والاجتماعية والأيديولوجية طرحت في ساحتها، في غياب مشاركتها وفعاليتها وحضورها.

ولما بدأت الصحوة الإسلامية بالنهوض من خلال الركام الذي خلفته التقليدية القاتلة، التي حيك نسيج فكرها خلال قرنين سابقين من الزمن، وراحت هذه الصحوة تحاول إعادة حياكة النسيج، بعيداً عن الفكر التقليدي بشقيه الماضي والحاضر، وبصورة خاصة بعد أن قوي ساعد هذه الصحوة، وعلا صوتها واشتد وجيب حركتها في عقد السبعينات وما بعده من القرن العشرين وحتى اللحظة من القرن الحادي والعشرين.

لما بدأت الصحوة هذا النهوض وجدت نفسها أمام تحديات حقيقية حيناً ومصطنعة حيناً آخر، تهدف جميعها إلى العرقلة والبلبلة وتأخير السير.

والصحوة – أمام هذه وتلك من التحديات – انقسمت على نفسها، وتوزعت إلى مسارب ومشارب في مواجهتها مما وضع على خطوط حركتها معوقات جديدة.

صحيح أن مجال الاجتهاد واسع، وأن الشريعة الإسلامية السمحاء فتحت الباب إليه للولوج، إلا أن الشريعة لم تدع لغير القادرين المؤهلين في هذا الباب سبيلاً ولا طريقاً، ولما كان الأمر بصورته العملية جرى بالطريقة الخطأ في العصور المتأخرة، فإن الأمور اختلطت والسبل أصبحت عائمة، وانقسم الناس أمام ذلك إلى شقوق، منها: شق طيب يحب الإسلام، ولكنه محتار أمام تعدد الأصوات المتنافرة، وشق خبيث يتخذ من هذا التنافر سبيلاً للطعن والتشكيك في صحة دعوى الجميع، وشق ثالث لا مبالٍ بشيء، وفصائل الإسلام مدعوة لتحرير الناس من الحيرة، وإنقاذهم من المشككين، وللعمل على هداية اللامبالين.

١٠. والتحدي الذي تواجهه الصحوة من داخلها في زماننا هذا يتمثل في امتلاك منظومة المعرفة بالعصر؛ فالصحوة مطالبة – شاءت أم أبت – بالإجابة الشافية الموحدة البسيطة عن جملة أمور منها: ما طرحه العصر بشكل طبيعي. ومنها ما طرحه الأعداء بقصد البلبلة والعرقلة، ومنها: ما نشأ عن شرذمة الاجتهاد والتشتت في كل الأمور المطروحة، إذ لم يتجه المجتهدون إلى الأخذ بالحد الأدنى المتفق عليه، في كل من هذه التحديات التي نحصي منها:

- المرأة في الإسلام والاجتهاد المناسب بشأنها.
- معاملة أهل الأديان الأخرى في الدولة الإسلامية المصطلح عليه عند فقهائنا بأهل الذمة.
- التعددية السياسية في الدولة الإسلامية والحريات العامة أي الديمقراطية.
- الدولة القطرية ودولة الوحدة.
- القومية والعروبة والموقف المسدد منها.
- المشاركة في الحكم والنظرة إلى الحاكم الذي لا يحكم بكل الإسلام.
- النظرة إلى القوانين الدولية والمواثيق الدولية بما يسمى الشرعية الدولية.
- الموقف من الآخر الغرب والدول التي يشكل المسلمون فيها أقلية محكومة.
- الموقف من التراث.
- آليات الوصول إلى تطبيق شرع الله في الأرض وعلى واقع الشعوب.
- كيفية التعامل مع الأقليات المسلمة في الدول الأخرى.
- شكل الحكم في الدولة الإسلامية.

١١. إن على الحركة الإسلامية وفصائلها وعناصرها أن تضع في مجال التحديات التي تواجهها قاعدة إستراتيجية هامة تقول: إن مجرد الانتماء إلى حركة الصحوة أو الإعلان عن تبني مجموعة لأهداف الإسلام وغايات دعوته أمران غير كافيين ليحقق الله النصر على يدي هذه المجموعة أو ذلك العنصر أو الفصيل.

إن التحدي الأكبر في هذا الانتماء أن يبقى هاجس الاستقامة على دين الله حسبما جاء في كتابه الكريم وسنة رسوله الكريم ﷺ، استقامة غضة طرية مرنة حازمة هو حادي هذا الانتماء، ورفيق مسيرة المنتمين الطويلة، وإلا فإن أُحداً وحُنيناً وغيرهما من أحداث الإسلام ودروسها وعبرها في خطط النصر وأسبابه وعناصر تحقيقه تكون غائبة عن ذهن هؤلاء، وبذلك فإننا لا نجد لديهم فهماً حقيقياً لأسباب الهزيمة والنصر التي أراد الله أن يربي بها

قاعدة الإسلام الصلبة في ذلك الوقت وكل وقت، بحيث تكون تلك القاعدة في كل زمان ومكان على قدر الالتزام «البدري» الذي حقق به الله النصر لنبيه وأتباعه، رغم قلتهم وضعف عددهم﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] .

١٢. وهناك تحديان كبيران تواجَهُ بهما حركة الإسلام والمسلمين المعاصرة وهما تحديان خارجيان داخليان، أولهما تقوده حركة الغرب وهو العولمة وأهدافها وآلياتها ومآلاتهما.
وثانيهما ثورات الشعوب العربية والمسلمة، المطالبة باسترداد حريتها وقرارها وكرامتها، وكيفية التعامل مع هذه الثورات، والخطاب المناسب لها، والمشاركة الفاعلة، والحضور المقنع.

وهذان التحديان مستجدان على الساحة.. ويُشكِّل حسن التعامل معهما والتدبير المتأمل لآليات المشاركة.. مناط الأمل في تحقيق حضور مشهود للحراك الإسلامي، وفي إثبات عملي وميداني لصلاحية الحراك الإسلامي في بناء نهوض مضيء للأمة، ينقذها من وهدة السير خلف الركب المعاصر وفي ذيله، ذلك السير الذي تَسيده نافذون ادّعوْا العلمانية ورضوا بالدونية والذيلية للأمة، وذلك حفاظاً على كراسيهم وامتيازاتهم الديكتاتورية الفردية الاستبدادية الباطشة فهل إلى مرد من سبيل؟ نرجو الله التوفيق والسداد والعلا لهذه الأمة..

---

(١) يوسف (٢١).

ثانياً : أهمية المعرفة النظرية والعملية ومؤيداتها

أ- تمهيد

تستبيح العالم الإسلامي اليوم – من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه – أماني وآمال عدوانية يتولى كبرها نخب من مختلف المهن، منهم الأدباء ومنهم العلماء ومنهم التقنيون ومنهم المؤرخون. ومنهم الغرباء، ومنهم من يتكلمون لغتنا ويلبسون لبستنا وينتمون إلى أرومتنا أياً كانت.

هذه الأماني وهذه الآمال العدوانية إنما تستهدف أول ما تستهدف صحوة الإسلام العارمة، لأنها أصبحت خط الدفاع الأول عن هذه الأمة الإسلامية بعد أن نام كثير من الدعاة في أحضان الدعة، وأسندوا إمكانية استمرارهم إلى مهادنة الفِكَر التي تبناها أصحاب تلك الآمال والأماني العدوانية تغافلاً أو توهماً.

ومن هنا يأتي الاهتمام بالصحوة الإسلامية اهتماماً بالأمل – بعد الله – في مضي هذه الصحوة قوية متماسكة صالحة لإقامة مبادئ الحق والعدل، رائدة تجمع العقول والقلوب حولها، وتكون نبراساً ورمزاً يدعوان الناس إلى الاجتماع حول مبادئ الإسلام، والمضي معها وبها بلا تردد.

وقد كان رسول الله ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، وكان أصحابه الذين اجتمعوا حوله معالم قرآنية، تدعو الصديق والبعيد، وتؤلف بين قلوبهم، وتجمعهم حول هذا الدين، الذي لوّن حياة البشر بعد ذلك بكل ما هو زاه وخير، ففتح الله بهم أقطار الدنيا المعروفة آنذاك، حيث أنار الإسلام جنباتها، وأزاح أستار الظُلَم التي كانت تلطخ طلعة الحياة أنى توجهت الشمس.

ولقد كانت عدة الصحابة والتابعين في ذلك الفتح المبين معرفة حقيقية وعميقة بما قاموا ليدعوا الناس إليه ويجمعوا الأمم حوله، ولم تقتصر تلك المعرفة على المجال النظري العقلي، بل كان نفاذها وقوة تأثيرها في المعرفة العملية المتمكنة في الأقوال والأفعال، وحسن التأتي في المواقف، فذاك الأمي الذي قال لقائد الفرس جئناكم لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، كان يعرف ماذا تعمل كلماته وموقفه في حضرة رجل يسجد له أتباعه ويعظمونه تعظيماً يخرج من حدود الاحترام إلى حدود التقديس والتأليه.

وذاك الذي قبل رأس قائد الروم من أجل إنقاذ إخوة له يعذبون، لم يكن

خارجاً عن الفهم نفسه لحدود عظمة الإسلام وعزة المسلم، رغم ما بين الموقفين من مفارقات شكلية.. إلا أنهما في المرتين كانا ينطلقان من فهم ووعي عميقين لما يحملانه من عقيدة ودين ونظام حياة، طبقها كل منهما بصورة من الحس العالي والفهم الفذ في الموقفين، ليعطي كل منهما صورة عن بطولة نادرة واستيعاب بعيد المدى للمبدأ.

ولأن الصحوة الإسلامية – كما قلنا آنفاً – أصبحت بعد الله هي الأمل في النجاة والشراع المنقذ في خضم التخبط العالمي، فإننا ننطلق جميعاً من هذه النقطة لنضع النقاط على الحروف في تحديد حاجات هذه الصحوة، وذلك لتسديد مسيرتها، وترشيد حركتها، وسد الثغرات التي تخلخل جدار بنائها، لنبتعد بها عن مكامن الخطر أو مهاوي الفشل لا سمح الله...

وأول هذه الحاجات هو: علم الدعاة بما يدعون الناس إليه، ثم تطبيق ذلك العلم على النفس أولاً ثم على الناس، والسير بالفهم السليم الحازم والمرن في الوقت نفسه.

ب. نصوص من القرآن والسنة تحض على التحلي بالعلم النظري والعملي

بدأ الإسلام دعوته بخطاب من الله إلى رسوله والعالمين بالآيات الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وبعد أن خلق الله آدم دار الحوار التالي الذي يوضح أن الله كرم الإنسان، ورفع آدم على بقية الخلق، بأن آتاه العقل، وثقفه بالعلم، ولنستمع إلى هذا الحوار: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾[2].

---

(١) العلق (١، ٢، ٣، ٤، ٥).
(٢) البقرة (٣٠، ٣١، ٣٢)

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾(١).

إن الآيات تقول للملائكة: إن الله كرم الإنسان وجعله خير المخلوقات، وهو أعلاها إذا تثقف بالعلم، وتحلى بالطاعة والتنفيذ لهذا العلم، وهو يستحق الاحترام من الملائكة بالسجود له.

ومن هنا جاءت في الإسلام فرضية العلم: علم العقيدة، وفقه الدين، وعلم أمور الدنيا التي لا تعمر الدنيا إلا بها.

ولقد من الله تعالى على رسوله ﷺ بأن آتاه القرآن، وعلمه إياه، وجعل ذلك العلم فضلاً عظيماً تفضل به عليه، وذلك في نص قرآني يتلى على الناس إلى يوم القيامة، ليكون لهم معلماً هادياً يهديهم ويقود طريقهم، ليعرفوا أن الفضل كل الفضل لمن آتاه الله العلم.

وهذا هو النص القرآني: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾(٢).

وقد بين ربنا أنه لا يدرك الفرق في الفضل بين العالِمين وغير العالِمين إلا أرباب العقل والفهم بقوله سبحانه ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣).

وقد قال رسول الله ﷺ في بيان تكريم أهل العقل والعلم وتقديمهم خلفه في الصلاة: (ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم) (٤).

وقال عليه الصلاة والسلام في هذا الباب: (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي

---

(١) البقرة (٣٣)
(٢) النساء (١١٣).
(٣) الزمر (٩).
(٤) مسلم في صحيحه.

السلطان المقسط) [١].

وقد بين رسول الله ﷺ في الحديث الشريف فضل من تعلم العلم وعلمه وعمل به، فقال ﷺ(إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني به الله وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به) [٢].

والنصوص في ذلك كثيرة ومفيدة ولو ذهبنا نتتبع ما ورد في الكتاب الحكيم وفي الحديث الشريف لاستوعب ذلك التآليف، ولذا فإننا نكتفي بما أوردنا منها فهي مغدقة ومقنعة في مجالها.

ج. نصوص الأئمة والدعاة

لقد أغنانا الأئمة والدعاة في القديم والحديث بما أوردوه من حض على العلم وبما نفحونا به من الكلم الطيب في مجال التحلي بالعلم والعمل به كي يكون المسلم على المستوى الذي يؤهله ليدعو غيره وينقذه.

فقد قال أبو الأسود: (ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك)[٣].

- وقيل: لما وقعت الفتنة بالبصرة ورضوا بالحسن البصري، اجتمعوا عليه، وبعثوا إليه، فلما أقبل قاموا، فقال يزيد بن المهلب: كاد العلماء يكونون أرباباً! أما ترون هذا المولى كيف قام له سادات العرب؟ وقيل: تعلموا العلم فإنه يوطيء المساكين بُسط الملوك[٤].
- وقال عبد الملك بن مروان: اطلبوا معيشة لا يقدر سلطان جائر على غصبها. قيل: ما هي؟ قال: الأدب، وأنشد صالح بن عبد القدوس:

قد يجمع المرء مالاً ثم يسلبه ... وجامع العلم مغبوط به أبداً
عما قليل فيلقى الذل والحربا ... فلا يحاذر منه الغوث والطلبا[٥]

(١) أبو داود في الصحيح.
(٢) الشيخان (البخاري ومسلم).
(٣)، (٣)، (٤) محاضرات الأدباء- الراغب الأصبهاني الصفحة ٣٢، ٣٣، ٣٤.

- وكان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته هزة المسائل يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه)[١].
- ووجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتي فيحدثه، فقال مالك: (إن العلم يؤتى ! فسار الرشيد إلى منزله، فاستند معه إلى الجدران، فقال: يا أمير المؤمنين! من إجلال الله تعالى إجلال العلم) [٢].
- وقال سالم بن أبي الجعد: كنت رقيقاً فاشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له[٣].
- وفي وصايا لقمان عليه السلام لابنه: (يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء) [٤].

وليس من المستغرب أن يكون للعلم هذا الفضل وهذه الأهمية، بحيث يكون طلبه فرضاً على المسلمين، فإنه بلا علم لا تستقيم الدعوات، ولا تقوم الحياة وتزدهر، ولا يستبين السبيل القويم، فيفترق الظلام عن النور، والضلال عن الهدى.

د. هل يُبتغى العلم للاستظهار فقط

لا يختلف اثنان في الإسلام على أن العلم لا يُبتغى من أجل حفظه واستظهاره وحسب، وإلا كان ذلك ضرباً من العبث وابتعاداً عن هدف الإسلام الذي أراد من العلم أن يُفهم ويُتدبر، وتكون عناصره عملاً يظهر في الأرض تنفيذاً وتطبيقاً، بحيث يبدو المجتمع الإسلامي رمزاً رائعاً للحياة البشرية النظيفة، يدعو كل المجتمعات الأخرى لاتخاذه قدوة وأملاً وواقعاً معاشاً، وبذلك يتحقق أمر الله بسيادة دينه بين الناس، وقيام الحجة على جميع الخلق من البشر.

وهذا مفهوم الآية الكريمة﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٥]. فهم أحق الناس بالإتباع والتنفيذ والخوف من الله، وهم أسرع الناس إلى تنفيذ

---

(١) ، (٢) محاضرات الأدباء- الراغب الأصبهاني الصفحة ٣٢، ٣٣، ٣٤.
(٣) الدعوة إلى الإسلام- الشيخ أحمد عز الدين البيانوني صفحة (٧٦) دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
(٤) الدعوة إلى الإسلام- الشيخ أحمد عز الدين البيانوني صفحة (٧٦) دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
(٥) سورة فاطر (٢٨).

الأوامر والابتعاد عن النواهي، وأقرب الناس إلى معرفة أنهم مأمورون بالعمل بالعلم الذي تعلموه، وأنهم إذا لم يفعلوا فقد أخلوا خللاً عظيماً بواجبهم الذي أمرهم به الله ورسوله.

وخشية العلماء لله إنما تتحقق في الإسلام، وتقوم على الشهادة التي يؤديها القول منهم والعمل، إذ يقول الله تعالى جل من قائل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾[1]**.**

وهذا هو منطوق حديث رسول الله ﷺ «لا حسد إلا في اثنتين» .... وعَدّ منهما: «ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[2] والحسد هنا الغبطة والحكمة هي العلم وهو عين فهم قول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[3]**.**

فالعمل بالعلم وتنفيذه في حياة العالم ونقله إلى حياة الناس هو الذي يحقق الإيمان والغاية الأساسية من العلم.

---

(١) سورة آل عمران (١٨).
(٢) حديث متفق عليه.
(٣) النساء (٦٤).

ثالثاً: ما هي المعرفة النظرية والعملية

أ- التكليف الفردي منطلقاً

بعد أن عرفنا أهمية العلم والمعرفة – نظرياً وعملياً – لكل مسلم، بقي أن نعرف ما هي أجزاء هذه المعرفة المطلوبة والمحمودة، التي يجب أن يمتلكها عنصر الصحوة، كي تستطيع العناصر بمجموعها أن تستحوذ على أسس سليمة صحيحة، تستند إليها الحركة الصاعدة المستقيمة الجماعية في طريقها إلى تحقيق المهمة الإنسانية للمسلمين في هذه الحياة.

بداية نقول: إن الإنسان المسلم عليه أن يتحلى كفرد باستكمال العلم النظري المطلوب وباستيفاء العلم العملي، انطلاقا من أن هذا تكليف شخصي له من الله تعالى. ولا يجب أن يفكر المسلم لحظة أن علما ما وعملا به من الممكن أن يُربط القيام به بشرط تحقيقه جماعياً، إن التكليف فردي ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[1].

إن تعليق استكمال الفرد للعلم النظري والعملي على شرط كهذا. هو بداية الوهن والتراجع، وهو أساس في عدم تحقق العمل الجماعي المسدد؛ وتفسير ذلك أن الأمر في الإسلام مبني على التكليف الفردي أولاً، والفرد هو اللبنة الأساس فإذا صلحت كل لبنة بنفسها ولو بالحد الأدنى من العلم قام البناء سليماً متراصاً متعاوناً متكاملاً، وإلا فإن البناء سوف يقوم على لبنات متخالفات، منها الصالح ومنها ما هو دون ذلك، وعندئذ يُفسد الدون ثبات البنيان وتعاضده، وبالتالي فهو بنيان غير متجانس، لا يحظى بعون الله وتوفيقه، ولا يكون مؤهلاً للتمكين له في الأرض.

وإذن فإن الدعوات الناجحة والحركات الواصلة تبدأ من عند الفرد الفاهم لمبادئه وأهدافه، العالم بدينه، العامل لتطبيقه وتنفيذه على نفسه ومن هم تحت طاعته. وإذن فالعمل يبدأ بالفرد فيصلحه في نفسه علماً وعملاً، ثم ينتظم هذا الفرد في عمل جماعي مخطط، ذي أهداف وحركة مرسومة

---

(١) النساء (٨٤).

محسوبة، وأي تقصير في الناحيتين يجعل العمل بلا جدوى ولا نتائج ترجى.

فالفرد المسلم هو أداة التنفيذ الرئيسة في حركة الصحوة من أجل عودة عز الأمة بالإسلام ورفعتها به، ولذا كان على الصحوة بجميع فصائلها الاهتمام بهذا الفرد أشد الاهتمام، وتحويله إلى عضو عالم وفاعل وقادر على حمل الرسالة التي نهدت الصحوة لحملها في هذا العصر.

وهذا ما وعته كثير من الحركات ذات الأهداف الإستراتيجية في عصرنا. وها هم أعداؤنا من قادة الصهيونية يؤكدون هذا بأقوالهم ومنهم: (جاكوب كلا تزمان) إذ يقول: (تؤلف دبابات سنتوريون عاملاً من عوامل الأمن والسلام على المدى القريب، ولكن المدرسة والجامعة هي العوامل الأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل البعيد، وإذا ما ابتلي المستوى الثقافي في إسرائيل بالركود والجمود بينما يأخذ مستوى الأعداء بالصعود فإن أيام استقلال إسرائيل معدودة. إن التربية هي أيضاً من مستلزمات الدفاع الوطني) [١].

وهذا ليفي اشكول يؤكد المعنى ذاته عندما يقول: إننا لا نكافح في الوقت الحاضر من أجل حقوق يهودية ليهود المنفى، ولكن من أجل تأصيل اليهودية بينهم، أي تأكيد الشخصية اليهودية وقوة عبقريتها (إننا لا نسعى إلى إقامة مدارس لأطفال اليهود، وإنما لتربية يهودية) [٢].

وفي قضية العناية بالفرد بداية يورد الشيخ العالم (أحمد عز الدين البيانوني) رحمه الله هذا المعنى بشكل واضح وبارز إذ يقول: (وفي الناس آخرون أرادوا خدمة الإسلام فكتبوا وخطبوا وخططوا مناهج ورسموا الطريق إلى بعيد، ولكنهم أغفلوا أمر أنفسهم (كأفراد)، فلم يبدأوا بها، ولم يحملوها على العمل بالإسلام قبل أن يكونوا الدعاة إليه، وبهذا أخطأوا طريق الإصلاح من أول خطوة، ولم يرجعوا من عملهم بطائل، ومن أول خطوات الدعوة إلى الإسلام البدء بإعداد الأفراد في أنفسهم) [٣].

وكل هذا مصداق توجيه وإرشاد الصادق المصدوق ﷺ (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) [٤] وهو عين ما قاله الأستاذ الشيخ محمد الغزالي في كتابه علل وأدواء (احتاج الإنسان كي يصلي إلى مساحة من الأرض لا تعدو ذراعاً في ذراع ولكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج إلى

---

(١) التربية اليهودية- عارف عطاري، ص٩.
(٢) التربية اليهودية- عارف عطاري، ص١٠.
(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص (١٨-١٩).
(٤) متفق عليه.

معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ بل إلى الشمس)[(١)].

ب- ونبدأ من عند المعرفة بالله:

فإن هذه المعرفة هي أول الأشياء وأساسها؛ فقد خلق الله الكون وما فيه والإنسان وما سخر له من منافع وأحوال، من أجل غاية عظمى هائلة هي الموصلة إلى الاستسلام الكامل لعظمة الخالق البارئ المصور، وهو مصداق قوله تعالى﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[(٢)]. ومن هنا جاء العلم بالكون، وتطويف البصر والنظر في عظمة تكوينه وهول أبعاده من أكثر الدلالات والبراهين قوة على معرفة الله وتقديره حق قدره.

فلقد ميز الله آدم عليه السلام عن الملائكة بهذا العلم الكوني الذي احتاجه من أجل النزول إلى الأرض، إذ قال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٣)].

فهذه المعرفة - إذن – هي أساس حياة الإنسان وسبب وجوده مع وجود هذا الكون المسخر له ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٤)] **وإنه بدون المعرفة لا تكون عبادة حقة ولا عبودية حقيقية.**

أما مصدر هذه المعرفة، الحقة فهو كتاب الإسلام المعجز (القرآن) وسنة نبي الإسلام الصحيحة قطعية الدلالة والثبوت، ثم كتاب هذا الكون بما فيه من خلق هائل ينم عن خالق عظيم، قادر بديع، ثم فهم العلماء العاملين الثقات من السلف الذين ما خرجوا لحظة عن الاقتداء برسول الله ﷺ وخلفائه الهادين المهتدين الراشدين.

وبغض النظر عن الخوض في تفاصيل هذه المعرفة كما خاض فيها

---

(١) علل وأدواء- محمد الغزالي، ص٢٦ (دار القلم دمشق).
(٢) الطلاق (١٣).
(٣) البقرة (٣١، ٣٢).
(٤) الذاريات (٥٦).

المتكلمون والمتفلسفون، فإننا نستطيع القول جازمين إن ما يميز هذه المعرفة الحقة عن المعارف المؤدية إلى الانحراف هو أنها بمجرد وقوعها في القلب واحتلالها للنفس يتحول صاحب ذلك القلب وتلك النفس إلى رجل جديد، يمتلئ كيانه بالاحترام والتقدير والتقديس لذات الخالق العظيم، وتفيض جوارحه بكل معاني العرفان والجميل والشكر للمنعم المتفضل الكريم، وتخر جبهته في خضوع العارف بالمبدأ والمآل، وتفوح جوانب حركته في الحياة بشذى الأخلاق الربانية، التي تجذب الشاردين، وتدل التائهين، وتضعه في حوزة الجهاد أبداً في سبيل رفعة دين الله التي يُصهر في ساحتها كل خوف، ويذوب كل تردد، إلى أن يلقى الله وهو على ذلك.

وخلاصة القول: يصبح ذلك الرجل نظرياً وعمليا... قرآنا يمشي على الأرض، تحدو حياته بكل تفصيلاتها غاية واحدة، هي مرضاة الله والفوز بحبه.

ج. عنصر الصحوة الإيجابي

وثاني المعارف التي يحتاجها المسلم عنصر الصحوة الإيجابي، ليكون لبنة سليمة في بناء كله سليم هي: المعرفة العملية التي تدل هذا الإنسان السوي على سبل تنفيذ المعارف النظرية التي سبق وأن ركزنا عليها، وهذه المعارف تتضمن:

١. فقه العبادات: حتى يكون عالما بأدائها على الوجه الصحيح فإنه لا تكفي النية الطيبة إذا لم تكن مشفوعة بالتنفيذ على الوجه الذي جاء به عمل رسول الله ﷺ وحددته النصوص.﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾[١].

٢. شيء من فقه المعاملات وآداب الإسلام، لا يستغني عنه، حتى يكون أخذه وعطاؤه على بينة ناصعة، تخرجه من باب المحرمات والمكروهات، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين[٢].

---

(١) التوبة (١٢٢).
(٢) رواه الشيخان. (متفق عليه)

٣. إلمام جيد بالسيرة النبوية وحركة التاريخ الإسلامي، وتراجم الدعاة بعد رسول الله ﷺ، حيث ينور قلبه بأعمال أولئك الأفذاذ، ويأخذ منها العبرة والموعظة لحركته اليوم.
٤. إتقان علم دنيوي أو أكثر يفيد فيه مجتمعه ونفسه وذلك من فرض الكفاية كما قال الفقهاء.
٥. فقه التعرف على أحوال المجتمعات التي يتعامل معها ليستطيع التكيف وحسن الأداء.
٦. اطلاع على شيء مفيد في علوم النفس الإنسانية ليستطيع التعامل مع مداخلها لدى الآخرين.
٧. فقه الأولويات وذلك ليعرف كيف يرتب حركته العامة في المجتمع، ويتساوق مع فصائل الصحوة، ويتفاعل معها بما هي عليه؛ فإن الحركة الإسلامية قد أتيت كثيراً في هذا العصر من قبل الجهل بأولويات العمل، وما الذي يُؤخَّر أو يُقدم من الأعمال، حسب الظروف والمناسبات.
٨. اطلاع عام على ثقافة عصره، يفيد في بناء نظراته وآرائه، وتقريب توجهاته من الصواب.
٩. قرب دائم من الأحداث، ومشاركة إيجابية فاعلة فيها، تصب في تيار الفوائد للصحوة الإسلامية، (كل ذلك نابع من تحليل واع مبني على المبادئ النظرية والعملية التي آمن بها).
١٠. إستراتيجية حياتية ذاتية، تستقي بنودها من هدفه في الوجود، الذي يتمحور حول معرفته الأولى التي ذكرناها آنفاً حين قلنا: إن هذا الإنسان عارف بالمبتدأ والمآل، وأن هذه الحياة القصيرة بالنسبة له إن هي إلا مشوار وضعه الخالق على بداية طريقه، وسوف يلتقطه المبدئ والمعيد في نهايته، ليجزيه بعمله.
١١. وحتى لا يكون رجل الصحوة خِبّاً يستغفله أصحاب المشاريع والبرامج الهدامة بالشعارات التي تغطي الأهداف المريبة، يجب أن يمتلك المعرفة الكاملة بهؤلاء ومبتغياتهم وآليات عملهم ووسائلهم، وأخص بالذكر هنا المشروع الغربي المتخفي خلف شعارات الحداثة وحقوق الإنسان، والمشروع الصفوي المتخفي خلف العمائم السوداء وشعارات التشيع والمقاومة.. المقاومة تهرب منهم ومن ديارهم ذات الذؤابات الفارسية الحاقدة على كل من شارك في إنهاء دولة يزدجر ديوماً.

وبرهاناً منا على برنامج الصفوية ننقل هنا قول الدكتور علي شريعتي الإيراني من كتابه (التشيع العلوي والتشيع الصفوي): «من القضايا الواضحة

وجود نحو ارتباط بين الصفوية والمسيحية، حيث تضامن الاثنان لمواجهة الإمبراطورية الإسلامية العظمى، التي كان لها حضور فاعل على الصعيد الدولي إبّان الحكم العثماني وشكلت خطراً على أوروبا»[1]

وإذن، فهي إستراتيجية كل ما فيها من خطوط العبادة الحقة تجعل صاحبها في كل لحظة متنبهاً لسبب وجوده – مع باقي المخلوقات – في هذا الكون، فإذا غفل لحظة أو مال به الميزان برهة، أعادته تلك الوقدة إلى الفطرة الصافية النيرة التي تضعه من جديد في تيار الصحوة الحقة.

هذه بعض المعارف النظرية والعملية الرئيسة، التي يجب على ابن الصحوة أن يحصلها ليكون القدوة الفاعلة الهادية بالعمل قبل القول، وللمستزيد من التفاصيل أن يرجع إلى كثير من المظان التي فصلت في كل نقطة.

ملاحظة: إن كل ما ذكرناه في الأبحاث السابقة هو تحديات داخلية في صف الصحوة أفراداً ومجموعات، ننتقل بعدها إلى الحديث عن التحديات الخارجية التي تواجه أفراد الصحوة وفصائلها أثناء الحركة أو التعامل الفكري والعملي.

(١) ص ٢٠٦. من الكتاب نقلاً عن مقال د. محمد عياش الكبيسى في جريدة السبيل الأردنية (السبت ٢٠١٢/٣/٢٤) العدد ١٨٩٦.



الباب الثاني

التحديات الخارجية

المبحث الأول

التطبيق العملي والميداني للمعارف

أ- عرض الإسلام نقياً

المرحلة التي امتدت من أوائل القرن العشرين وحتى ما بعد منتصفه بقليل كانت بالنسبة للحركة الإسلامية مرحلة إثبات الذات وإعادة الثقة بالإسلام وجعله محور تفكير الناس والاعتزاز بمقومات هذه الأمة الحضارية. وقد قام الموجهون والعلماء والمفكرون والدعاة في هذه الفترة بدور ناجح أوصلوا الإسلام - هذه الأيام- إلى مقدمة اهتمامات أهله واهتمامات العالمين.

وإذن فنحن الآن ومستقبلاً – أصحاب دعوة وعناصر حركة – يجب أن لا نجمد على الوسائل والأساليب التي استعملناها طوال الفترة الماضية، لأننا أصبحنا في معترك مرحلة جديدة، تتسم بالانتقال من مرحلة إثبات الذات وإعادة الثقة التي كسبنا بعون الله معركتها إلى مرحلة تقديم الإسلام إلى العالمين على أنه المنقذ المخلص من كل ما يتناوش هذا العالم من أخطار وتهديد بالانهيار، بسبب ما سلط عليه من مباديء وأفكار هدامة، تنأى بالإنسان عن أسباب فطرته السليمة وعن عناصر تكوينه البشري وعن غايات وجوده في هذا العالم.

والقضية الأولى والرئيسة التي نحتاجها في مرحلة الانتقال هذه هي قضية عرض هذا الإسلام صافياً نقياً على العالم، وليكون العرض مقدماً في ثوبه الرائع الجذاب فهو يحتاج إلى المقومات الآتية:

ب- مقومات العرض:

١. وحدة في الأهداف العامة لمسيرة الصحوة، يجري التنسيق بشأنها بين فصائل الحركة، على ضوء ميثاق يتفق على مبادئه وخطواته. وقد تكلمنا في هذا البند منذ البداية بما ألهم الله من قول.
٢. معارف نظرية وعملية يجب أن تتحقق في الفرد السائر في ركب الصحوة الإسلامية المباركة، لكي يكون ذلك الفرد والركب بأكمله واعياً لحركته مدركاً ما يدعو إليه فاهماً لمهمته الحياتية والغاية من وجوده فيها، ولقد شرحنا هذا الموضوع بإيجاز فيما تقدم من كلامنا.
٣. الفهم: ونقصد به تحصيل المعارف التي أوردنا عناصرها من قبل، ثم

التطبيق الميداني لتلك المعارف بالشكل السليم المناسب، وهذا ما سيكوِّن مواضيع هذا الفصل وذلك حسب الأبحاث التالية: أهداف التطبيق العملي، والفهم الميداني، ميزات التطبيق، رصد النتائج والنقد الذاتي.

ج- أهداف التطبيق العملي:

١ -الفهم الميداني

تنتشر في العالم اليوم مبادئ ودعوات كثيرة يقوم على بثها وإعلان خطابها دعاة متميزون مثقفون، ومختصون، ومدربون، ويمتلكون وسائل هائلة من الإمكانات التي تتيح لهم إبراز ميزات دعواتهم، وشرح تفاصيلها وإيجاد الطرق السريعة والكثيفة من وسائل الإعلام والدعاية والنشر، التي توصل مبادئ تلك الدعوات إلى الجماهير بأيسر السبل وأكثرها دخولاً إلى نفوس الناس، بل وأشدها إقناعاً لهم.

لذلك فقد كان على دعوة الإسلام في هذا العصر الذي تتكاثر فيه الدعوات، وتتزاحم على كسب الجماهير بكل الوسائل، أن تمتلك من الفهم الميداني ما يجعلها بارزة ومزاحمة ناجحة، وإلا فإن الحفظ النظري والاكتفاء بالخطاب الكلامي سوف يسيطر على نفوسنا، وبذلك نتخلف فنكون في مؤخرة الزحام، ونبقى على الأرصفة نصرخ، وزحمة الشارع في غفلة عن نداءاتنا. وهذا مصداق ما كشفه الإمام الشهيد حسن البنا – رحمه الله – حين قال في رسالة دعوتنا: ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين أن نؤمن بالفكرة إيماناً يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب، حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، فإذا هدأت ثائرة الكلام، وانفض نظام الجمع، نسي كل إيمانه، وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر في العمل لها. ولا يحدث نفسه: بأن يجاهد أضعاف الجهاد في سبيلها.

وإذن فإن الفهم الميداني الصحيح لدعوتنا يجعلنا نحدد له أهدافاً عملية، وذلك لكي تؤتي دعوتنا ثمارها اليانعة، بأن تصبح مطلب الزحام، ومنقذة العالمين، وحتى نصل بالناس إلى الإيمان بأن في تطبيق الإسلام منفعة الدنيا وصلاحها وسلامها وراحة الروح حين تُحمل من غمار الحياة إلى مستقرها الأخير الأبدي...

٢- بقية الأهداف

ومن بين تلك الأهداف التي يجب أن تتحكم في مسيرة التنفيذ:

أ. رضى الله عنا ثم رضانا عن دنيانا وآخرتنا
ب. الخروج من النسخ المكرر إلى الميدان
ج. إيجاد القدوة والنموذج
د. التدريب

أ- رضى الله عنا ثم رضى أنفسنا واطمئنانها على دنيانا وآخرتنا

فهذا الهدف هو أساس الأهداف ومحورها وبأني قواعدها ومحرك ضمائر الناس في ميدانها﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2].﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

(فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) [4]. حديث

وهذا كما هو واضح هدف نفسي شخصي ذاتي لكل فرد مسلم، لا يسلم له عمل إن هو أهمله أو تهاون في جعله نبراس كل شيء في حياته.

كما أنه هدف جماعي لكل جماعة تدعي العمل بمنهج الإسلام من أجل إعلاء كلمة الله وتحكيمها في مناهج الحياة البشرية وأنظمتها.

إن بناء الفرد المسلم لكيانه تنفيذاً لمباديء دينه على أساس من هذا الهدف يجعل منه رجلاً نموذجاً في:

١- الشجاعة وطرد الخوف والحرص، ويكون في هذا مثله كمثل السحرة عندما دخل الإيمان قلوبهم إذ قالوا لفرعون مباشرة غير هيابين، وغير حريصين على دنياه والمناصب: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[5].

وكذلك المثل الذي ضربه الصحابي عمير بن الحُمام في معركة بدر، الذي علم أن من يقتل في سبيل الله فهي الشهادة وهي الحياة الخالدة في الجنة فقال: بخ، بخ إنما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء .. فرمى ثمرات كان

---

(١) الذاريات (٥٦).
(٢) التوبة (١١١).
(٣) الأنعام (١٦٢).
(٤) متفق عليه.
(٥) طه (٧٢).

يأكلها، وأقبل على المشركين بجسارة فذة حتى قتل[١].

وهذا الهدف هو الذي امتد في الزمان مع دعاة الإسلام فأوجد ذلك العالم (مالك) الذي أرسل إليه السلطان ليحضر إليه: فأجابه إن العلم يؤتى ولا يأتي[٢].

وهو هو الذي جعل العز بن عبد السلام رحمه الله يرد طلب المماليك بجمع المال من الشعب، كي يعدوا جيش مصر لملاقاة التتار، إذ قال لهم: استعملوا كنوز قصوركم في ذلك أولا، وإلا أمرت ببيعكم، فأذعن الحاكم المملوك لأمر العالم الذي جعل الله بينه وبين السلطان حواراً ومواجهة، فلم يهن، ولم يرتعد فرقا من هيبته وسلطانه[٣].

وهو هو الذي دفع بسيد قطب في عصرنا هذا إلى رفض طلب الرحمة من الحاكم الذي حكم عليه بالإعدام، وقال ما معناه: إن كنت حكمت بحق فأنا أكبر من أن أرفض الحق. وإن كنت حكمت بباطل فإني أكبر من أن استرحم الباطل.

أو قال بحسب رواية أخرى ربِّ السجن أحب إلى مما يدعونني إليه[٤] وفي رواية ثالثة قال رداً على الظالم ((ما كان لهذه الأصابع التي تشهد لله بالوحدانية في كل صلاة أن تخط كلمات شهادة للظالمين)).

والأمثلة على ذلك كثيرة، نكتفي منها هنا بالإشارات السابقة.

٢- وفي الانضباط والطاعة، حيث يضع الفرد المسلم نفسه في سبيل الوصول إلى الله ورضاه موضع النزول على أوامر ربه ومقتضيات هذه الأوامر؛ من طاعة وانضباط داخل الصف العام أو التنظيم الخاص، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٥]. و ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦].

---

(١) من السيرة (غزوة بدر الكبرى/ محمد أحمد باشميل/ دار الفكر/ الطبعة السادسة ١٩٧٤ ص١٨٢ بتصرف).
(٢) سبق تعريف/ مالك بن أنس/.
(٣) يراجع (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٢٠٨ لابن تغري بردي.
(٤) سيد قطب بين الغالين فيه والجافين عليه (محمد أبو شقرة ص٤).
(٥) الأنفال (٢).
(٦) النساء (٥٩).

وحينئذ ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وقد حرص الإسلام على تربية أفراده على أساس طلب مرضاة الله تعالى، فجاءت العديد من العبادات منتظمة الكثير من المعاني التي تربي المسلم على النظام والانضباط والطاعة، مثل: الصلاة وحركاتها خلف الإمام. فهي تنظم الجماعة بحركات واحدة، وقراءات موحدة، وإطاعة لحركات الإمام وانتقاله، وكذلك الصيام، إذ تنتظم الجميع أوضاع واحدة، وساعات محددة في الإقبال على الطعام، أو الامتناع عنه. وكذلك في الحج والزكاة وغيرها.

وهناك نماذج كثيرة في التاريخ تبين مدى فعل ذلك المنهج المبني على أساس من رضى الله والطاعة والانضباط، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أمير جيش الإسلام في القادسية، (وهو المبشر بالجنة وخال رسول الله ﷺ،) يقول له: يا سعد بن وهيب (هكذا بدون ألقاب يحرص عليها الكثيرون، بل ويقاتلون من أجلها): (لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا، فألزمه فإنه الأمر. ثم يقول له: اكتب إليَّ بجميع أحوالكم وكيف تنزلون؟ وأين يكون عدوكم منكم...؟ (٢).

فماذا كان رد سعد رضي الله عنه؟ هل أهمل كتاب أميره؟ وقال ما الذي يريده ذلك البعيد؟ الذي يقبع خلف حدود المعركة آمناً مع زوجه وأولاده! أو قال: ما الذي يعرفه ذلك الأمير من تلك المسافات البعيدة عن أرض المعركة وشكل الجند وظروف المعركة حتى أكتب إليه وآخذ رأيه وأمره؟!

أنا أمير الجيش وأنا القائد!

لا... لا أبداً فهذا سعد عرف حق المعرفة أن في طاعة أميره طاعة الله، وأن كل ما يقوم به من قيادة للجيش الإسلامي ومقاتلة للأعداء وتعرض للأخطار ليس من أجل ترقية ينالها، ولا من أجل خطوة دنيوية يبتغيها، بل إن

---

(١) النور (٥١).

(٢) من كتاب رجال حول الرسول (خالد محمد خالد) ص١٥٠-١٥١.

ذلك كله من أجل مرضاة الله، التي تكمن فيها سعادة الدارين، وسلام النفس، وتصالحها مع ذاتها.

لقد كان الجواب من أمير الجند إلى أمير المؤمنين: أن كان يصل منه كل يوم كتاب مفصل بأوضاع المعركة، حتى أن عمر ليكاد يعرف موقف ومكان كل جندي من جند سعد[1].

وهل أتاك حديث خالد رضي الله عنه في اليرموك؟ وكيف أطاع أمر عمر رضي الله عنه عندما نحاه عن قيادة الجيش، والقصة مشهورة؟.

وهل سمعت بأقوال وأفعال من: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2]. فمن المنقول عن الخليفة هارون الرشيد: أنه احتجم، فاستفتى الإمام مالك: هل يتوضأ للصلاة؟ فأفتاه الإمام بأن لا وضوء عليه، فصلى بصلاته تلك الإمام يوسف تلميذ أبي حنيفة وهو الذي قال على مذهب أستاذه القائل: بأن خروج الدم من الجسم ينقض الوضوء، فقيل لأبي يوسف: أتصلي خلفه؟ فقال: سبحان الله: أمير المؤمنين! فإن ترك الصلاة خلف الأئمة لمثل ذلك من شعائر أهل البدع كالرافضة والمعتزلة. ثم أضاف: سبحان الله ! ألا تصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك بن أنس)؟.

هذه القصة توحي لك بالطاعة والانضباط من ناحية السلطان الذي يستفتي العلماء ويلتزم بفتواهم، ثم من ناحية العلماء والرعية الذين يدخلون في الطاعة، ولو كانت غير موافقة لآرائهم، ما دامت غير مُدْخِلة في معصية الله. فالجميع في بوتقة الطاعة لله، والانضباط بمقتضياتها، وذلك ما جعل مجتمعاتهم أكثر المجتمعات الأرضية سلاماً ومصالحة وانسجاماً.

فإذا انتقلنا مع الزمان، ووصلنا إلى عصرنا رأينا كيف يفعل ذلك المنهج في كل زمان ومكان، فقد أتحفنا هذا الزمان برجل عظيم من دعاته، وعلم من أعلامه هو الأستاذ الفذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، ولنستمع أولاً إلى رجل من الذين عايشوه عن قرب، يصفه وصف العارف إذ يقول: (كان مع هذا الإنسان الإيمان، بل كان الإيمان هو الأصل عنده، لقد كان يستمد من الإيمان قوته وعزمه، وصبره وجلده، وعلمه وفهمه، حياته ومعيشته، إذا حدثته عن الله وجدته مسروراً، ووجدته مضطرباً، ووجدته خاشعاً ثم ألفيته يتدفق في الكلام عن خالق الكون وكأنه يراه).

---

(١) من كتاب رجال حول الرسول (خالد محمد خالد) ص١٥٠-١٥١.

(٢) الحج (٢٤).

ثم يقول: (ولقد زرته مرة في مستشفى المواساة، فأردت أن أواسيه، فالتفت إلي بوجه مصفر من ليلة قضاها في الآلام المضنية وقال: (أشكرك على حسن مواساتك، لكنك لو كنت تعلم كم أنا راض بحالي لما أشفقت عليّ شفقتك التي تبدو عليك، إني بخير نعمة من الله.. قد تجد قولي غريباً، لكني أقول الحق، وسأفسر ذلك: إني مريض أتألم، ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي، وعلى يدي، وفي حركتي، لكن انظر إلى حكمة الله في أن الله قدير على أن يشل حركتي، وقد شلّ بعض حركتي، فانظر ماذا شلّ لقد شلّ طرفي الأيسر، وأبقى لي الطرف الأيمن مني؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر، لكنه أبقاه لي، فهل أكثر من هذا لطفاً؟ إن الله قدير على أن يخمد قريحتي، لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل، فما ألطفه بي)!!

ثم يضيف الدكتور العش القول: (بهذا الإيمان كان يعيش السباعي، وبه نستطيع أن نفسر حياته وعلمه وعمله، والإيمان العميق يثمر في نفس صاحبه حباً صادقاً، يبذله لكل الناس، وخاصة لإخوانه، ولقد تلمس هذا الحب في صدق الجماهير وعفويتها عندما كانت تستقبله، أو تسمع إليه، أو تتحدث عنه، أو تودعه إلى مثواه الأخير.

ذهبت أسأل بعض الذين عاشوا معه فكنت أستمع عجباً من مقدار الحب الذي يكنه هؤلاء لأستاذهم.

إن هذا الإيمان الرائع المنبثق من منهج واحد أساسه استعمال هذه الحياة القصيرة في سبيل نيل مرضاة الله ليفعل الأعاجيب فعلاً. ولقد جاء من تلامذة هذا الإيمان الفذ من ربى مؤمنين عليه، بحيث لمعت منه لمحات في الطاعة نادرة، واستمع إلى القصة التالية:

الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، الجو بارد، والليل قاتم الظلمة، والبلد يتعرض لأحداث متابعات للإسلاميين، قرع باب المنزل. وأطل شاب بهي، في أوائل العشرينات من عمره، فأجأه وجود مربيه في دعوته على الباب في تلك الساعة المتأخرة، فسأله أهو قيام ليل؟

ضحك الآخر، وكان في منتصف الثلاثينات من عمره، وقال: لا، لا، إنها مهمة إنسانية، هل أنت مستيقظ؟ نعم، وعندي ضيوف، وجميع أهل البيت يسمرون مع الضيوف، إنهم أقارب قادمون من دولة أخرى.

مهمتك الآن وفي هذه اللحظة السفر إلى دولة أخرى، لنقل رسالة تتعلق بقضية دعوية إنسانية.

هل قال لا؟ هل تردد أو تلعثم ؟ أو هالته المهمة في هذه الساعة المتأخرة والأخطار محدقة والضيوف تركهم محرج؟.

لا والله، فلم يكن جوابه إلا أن قال: سمعاً وطاعة، مرحباً برضى الله، وخلال ربع ساعة سوف أكون قد غادرت، وكان ذلك فعلاً، وسافر الشاب الداعية في الساعة الواحدة ليلاً، وعاد بعد أيام سالماً، وقد أدى ما عليه[١].

٣- وفي القرب من الناس ومشاركتهم همومهم وأوضاعهم، فهو ابن المنهج المتميز بالتوازن والوسطية الذي جاء في كتابه العظيم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[٢]. والذي يوصي فيه الرسول ﷺ مبعوثيه إلى اليمن أبا موسى ومعاذاً رضي الله عنهما، فيقول لهما: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا) [٣].

وقال ﷺ واصفاً نفسه ودعوته: (إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً) [٤].

وهو في هذا هين لين، يألف ويؤلف، يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم ومعاناتهم، ويكون واحداً منهم، لا يترفع عنهم، ولو كان فيهم انحراف، ولا يتعالى عن مشاركتهم، ولو كان فيهم شيء من الابتعاد، بل همه أن ينقذ ما يستطيع إنقاذه منهم، ويبعد ما يستطيع إبعاده من انحرافهم وابتعادهم بدون تكلف، ولا عنت، ولا تحميل للأمور والأوضاع ما لم تحتمل، واضعاً نصب عينيه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[٥] فإن وسع الناس متفاوت، فكل فرد أو مجموعة له أولها قَدرٌ من الاحتمال، احتمال وظروف تختلف عن غيرهم...

---

(١) القصة حدثت معي (كنت أنا الذي قرع باب الشاب في تلك الساعة)

(٢) الأعراف (١٥٧).

(٣) مسلم في صحيحه.

(٤) مسلم في صحيحه.

(٥) البقرة (٢٨٦).

فالمسلم عنصر الصحوة الإسلامية ليس درويشاً، يحصر نفسه في دائرة ضيقة من العبادات، كما قال الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، بل إن هذا المسلم يكافح مع أبناء شعبه جنباً إلى جنب، وكتفاً إلى كتف، وقبضة مع قبضة، وآمالاً مشتركة، وذلك لتكون مباديء الإسلام هي السائدة، في غير غلو، ودون إفراط ولا تفريط، يحدوهم قول رسولهم الكريم ﷺ: ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيءٍ من الدلجة)) (١).

فهو وطني مع الوطنيين بل هو في مقدمتهم، وأشدهم إخلاصاً وتفانياً، وهو إمام من أئمة العمل والعمال والدفاع عن حقوقهم ومشاركتهم همومهم ومعاناتهم وحمل مطالبهم العادلة، وهو في مقدمة من يؤمنون بالرابطة الإنسانية بين بني البشر. بغض النظر عن اللون والدين والعرق، حاديه في ذلك قول ربه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (٢).

٤- وبالإجمال: فإن عنصر الصحوة الذي ربط نفسه بمنهج مؤسس بكامله على طلب مرضاة الله، لابد أن يكون عنصراً إيجابياً في مجتمعه، قريباً منه ومن أهله، مشاركاً مشاركة فعالة هادية مهدية في أحداث ذلك المجتمع، لتقويمها، وجعلها تصب دائماً في صالح الإنسان وبناء دنياه المستقيمة وإيصاله إلى آخرة هانئة رضية. وبذلك كله لا بغيره تكسب الصحوة معركتها مع الباطل المنتفش، وتصل إلى الغايات من أقصر الطرق.

فهل وعينا مغزى قبول رسول الله ﷺ لدعوة اليهودي – جاره – على الطعام؟ وهل استوعبنا مغزى تحاكم علي رضي الله عنه مع اليهودي على درع ووقوفه معه نداً لند أمام القضاء؟ وهل جاء نبأ أبي حنيفة (رحمه الله) مع جاره شارب الخمر الفاسق واهتمامه به حتى أسلم نتيجة لذلك الاهتمام؟ هل فهمنا مغزى تحرك الإمام الشهيد حسن البنا (رحمه الله) في مجتمعات المقاهي وأماكن اللهو والالتقاء بالناس هناك ومن ثم جلبهم إلى المسجد؟!

إنه ليس أمام عناصر الصحوة لينقلوا فكرهم وعقيدتهم إلى الناس إلا أن يكونوا كأصحاب تلك الأمثلة: اختلاطا بالناس، وتعاملاً معهم بمرونة وتواضع،

---

(١) رواه البخاري.
(٢) الحجرات (١٣).

ومشاركة فعالة، تنبذ كل تعال وترفُّع، وتأتي بكل فهم ومعايشة ومحاولات لحل المشكلات ورفع الظلم وإيجاد البدائل المريحة.

ونمضي في الأهداف التي اخترناها في التطبيق العملي للمعارف النظرية والعملية التي يجب على مسلم العصر أن يكتسبها:

فعندما يقول (فرنسيس فوكوياما) المفكر الأمريكي المعاصر: إن التاريخ وقف وانتهى إلى غايته)، وهو يقصد بهذه العبارة أن التدهور والانهيار الذي أصاب الديكتاتوريات والنظم الشمولية، نتيجة إخفاقها وسقوط أخلاقها وتعاملها الغريب مع الإنسان، قد أوصل هذا الإنسان إلى المرفأ النهائي، الذي ليس بعده ارتحال، ويقصد بهذا المرفأ الذي وقف التاريخ عنده، - الليبرالية الديمقراطية الغربية – باعتبارها النظام النهائي الصالح للحكومات الأرضية.

فإن فوكوياما الياباني الأصل نسي أو تناسى: أن النظام الليبرالي وديمقراطيته الغربية هو سبب ذلك القلق صعب المراس، (فالديمقراطية الليبرالية) مبنية على التنافس غير الأخلاقي في مجالات الحياة المختلفة، سواء كانت مجالات استهلاكية أم إنتاجية، وسواء كانت في مجالات الشهرة والظهور، أم في مجالات البر والخدمات.

فالإنسان الخاضع لتلك الأنظمة الليبرالية، يفقد أسباب استقراره النفسي واطمئنانه على مصيره، وهذا ما يجعلنا نجزم أن حظ هذه الأنظمة الليبرالية من البقاء وتلبية حاجات الإنسان ليس أكبر من حظ النظم الشيوعية والشمولية، التي انهارت وأفلست تحت وطأة مصادمتها للفطرة الإنسانية التي فطر الله عليها البشر، كل ذلك لأن تلك النظم – الشمولية منها أو الديمقراطيات الرأسمالية – بنيت على أسس من الهوى البشري، الذي يتسم بالنقص والضعف دائماً، إذ انه قطع علاقته بمصدر الخير ونبع الهدى الأصيل، الذي يعلم ما يسعد هذا الإنسان، أو ما يضعه في مهاوي الشقاء، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]. وقال جل من قائل: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[2]. وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا

---

(١) المائدة (٧٧).

(٢) الكهف (٢٨).

تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾[1].

وكذلك هو معنى ما قاله رسول الله ﷺ: (من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[2]. أي أن من ترك الهدى واتبع الهوى – تركه الله لهواه يقوده إلى مهاوي الردى والفساد الحياتي والأخروي.

وها هو المفكر المغربي: (محمد العربي الخطابي) يشير إلى إفلاس الأنظمة الليبرالية مستقبلاً إذ يقول: (إذا كانت الشيوعية قد أعلنت إفلاسها، وتهيأت للوقوع النهائي في هاوية التاريخ، فإن الليبرالية المبنية على التنافس الفوضوي في مجال الإنتاج والاستهلاك بدأت بدورها تسرع بالخطى نحو غايتها الحتمية، التي هي التداعي والسقوط، ولا عبرة بما يشاهد كل يوم من مظاهر القوة والبذخ والزينة، ما دامت أسباب الأزمة النفسية والفكرية قائمة، وعلامات التردي الخلقي والاجتماعي بادية للعيان، كتفكك الأسرة وتخلخل القيم الروحية، وتهافت مراكز السيطرة والنفوذ، والغلو في العدوان المنظم على البيئة الطبيعية، والتنافس الأهوج في توفير وسائل التدمير والإتلاف، من أسلحة ومخدرات ومبيدات كيماوية وبيولوجية، وغير ذلك مما يقود الإنسان – كرهاً وطوعاً – إلى الخضوع لقوى غامضة، تسعى لسلبه ما تبقى من وجدانه الحر، وكل ذلك باسم الديمقراطية، وحقوق الإنسان ومتطلبات التقدم الحتمي)[3].

وإذن فأين هو المرفأ النهائي، الذي يئرز إليه الإنسان، للخروج من الأزمة النفسية والقلق المحير تجاه المصير المجهول، الذي يُمرض هذا الإنسان ويذهب عنه الاستقرار، ويضعه دائماً في حومة الترقب القاتل؟

هل هو في النظام الليبرالي الديمقراطي؟ وحظه كما رأينا ليس أوفر من حظ النظم الشمولية، وذلك لأنه يصادم في كثير من النقاط فطرة الإنسان، ويقصر في توفير الاستقرار النفسي الذي لا يحققه إلا الاعتقاد بوجود غاية سامية تحكم مسيرة هذا الإنسان فوق الأرض؟

أم هو في النظام الذي خطه للإنسان موجده، العالم بما يصلح له، وما يضعه على الطريق السديد الذي يرعى جسده وروحه، ويَقَرّ به قلبه وعقله، ويستقرا ويطمئنا إلى المصير؟

---

(١) النجم (٢٣).
(٢) رواه مسلم في صحيحه.
(٣) من مقال صحفي له.

نعم إن هذا النظام هو الذي ينتظره الإنسان، ويرقب بزوغه، وهو الذي يحتاج منا نحن المسلمين إلى الخدمة الميدانية السليمة، كي نقدمه للعالم على طبق من المحبة والرغبة في إنقاذ البشرية من مصيرها الأليم، الذي تجري بأقدامها إليه، في ظل النظم الليبرالية الفوضوية، التي لا غاية لها إلا خدمة حفنات من المتنفذين ذوي السطوة والثراء، تؤازرهم قوى غامضة، تبتغي التحكم في هذا العالم، من خلال نفوس أمرضها طول العناد ومقاومة الأقدار الربانية الحكيمة. يحدونا في ذلك كله طلب مرضاة الله في تحقيق منهجه عملياً.

وقد ذكرنا سابقاً في سياق شرح هدف إرضاء الله ثلاثة نماذج للرجل المسلم العصري، الساعي إلى مرضاة ربه، من خلال قيامه بالتبليغ، وهذه النماذج هي في مجال الشجاعة أولاً، وفي مجال الانضباط والطاعة ثانياً، وفي مجال الاقتراب من الناس ومشاركتهم حياتهم بهمومها وأفراحها ثالثاً.

٥- لين الجانب: ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى قضية هامة جداً، وهي أن يكون المسلم نموذجاً في لين الجانب والمرونة وحسن التأتي، يعطي من نفسه ما يجعل المدعوين يقبلون عليه بحماس وثقة وحب. يحدوه في ذلك قول الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾[1].

وأهم ما تقتضيه هذه الصفة من رجل الصحوة:

أ- أن يكون صادقاً في حركاته وسكناته مع الناس، في سره وعلانيته، وأعظم مظاهر هذا الصدق التوافق فيه بين القول والعمل. «فقد جاء في الأثر: أن رجلا جاء إلى ابن عباس رضي الله عنه فقال: إني أريد أن أعظ فقال: أو بلغت ذلك؟ إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى فافعل قال: ما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[البقرة: ٤٤]. وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ - ٣]. وقول العبد الصالح شعيب: ﴿...وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ

(١) آل عمران (١٥٩).

أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ ...﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآيات؟ قال: لا، قال: فابدأ إذاً بنفسك»[١].

ب- أن يكون ليناً لطيفاً في توجهه بالدعوة إلى الناس، حاديه في ذلك قوله تعالى في توجيه موسى عليه السلام إلى فرعون، حين طلب منه ومن هارون أن يتلطفا بدعوته. ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٢].

وفي هذا المجال يجب أن لا يكثر الداعية من وسائل الترهيب وأسباب التخويف، بل يجب أن يكثر من أسباب الترغيب والتحبب وانتزاع ثقة الناس، ليقبلوا على الإسلام مادة الدعوة.

ج- وأن يكون حكيماً في انتقاء البيئة الملائمة لقبول الدعوة، بحيث تكون حافزاً أولياً لغيرها، لأن التوجيه غير الملائم في البداية يبعث اليأس في قلب الداعية، لما يجد من إعراض في الطبع، وعدم رعاية في السمع، كما أنه يوقف زحف قبول الدعوة إذا ما اصطدمت بداية في الجدران الصلدة.

وقد قال المتكلمون: من علم أو ظن انه يَنْفُذ قوله ولا يناله مكروه إذا قاله أو فعله فعليه أن يفعل ذلك.

د- وأن يكون عفوّاً رحيماً، متغافلاً عن الهفوات في أكثر الأحوال. فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾[٣] وقال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤] وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾[٥].

وقال مؤدباً نبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[٦].

---

(١) من كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء الراغب الأصبهاني المجلد الأول صفحة ١٣٢ طبعة دار مكتبة الحياة- بيروت.
(٢) طه (٤٤).
(٣) الفرقان (٦٣).
(٤) آل عمران (١٣٤).
(٥) النور (٢٢).
(٦) الأعراف (١٩٩).

وقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وكان رسول الله ﷺ يمسح الدم عن وجهه عندما آذاه قومه ويقول ((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)) [2].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل»[3].

وقد قال أبو العتاهية:

ساهل الناس إذا ما غضبوا ... وإذا عزّ أخوك فهن

وقال المتنبي

وأحلم عن خلي وأعلم أنني ... متى أجزه حلماً عن الجهل يندم

وفي الأمثلة العملية على ذلك الكثير: ففي تأدب إبراهيم مع أبيه، وتلطفه معه رغم المجابهة العنيفة التي لقيها جد الأنبياء عليه السلام مثل حي على الرحمة، ولين العريكة، وحسن التأتي في دعوة الناس.

ولنقرأ، ونتمعن هذا الحوار القرآني ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[4].

ورد عليه أبيه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾**!** ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[5].

أرأيت العذوبة في توجه الابن إلى الأب؟ ثم أرأيت الغلظة في رد الأب (لأرجمنك واهجرني)! ثم أرأيت كيف كان جواب الابن غاية في العذوبة إذ قال: سلام عليك، سأستغفر لك ربي! فهل يكون هذا الأسلوب نبراساً لكل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟

---

(١) البقرة (٢٣٧)
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن.
(٤) مريم (٤٤، ٤٥).
(٥) مريم (٤٦، ٤٧).

إن الكبر والاستعلاء والاستطالة على الآخرين أعدى أعداء الدعاة إلى الله، وبالتالي فهي صفات معادية لرجال الصحوة في عصرنا الحاضر، ولقد كانت هذه الصفات سبباً في طرد إبليس من رحمة الله، وحلول اللعنة عليه إلى يوم الدين، إذ بدأ عصيانه بقوله:﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[1].

وانظر في موقف رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل، وعرض عليه أن يطبق على من في مكة أخشبيها، عندما وجده حزيناً من إعراض أهلها وعنادهم، فماذا كان جواب رسول الله الكريم ﷺ؟ هل هو جواب الكبر؟ أم الاستعلاء؟ أم الانتقام؟ حاش لله... فإنه لعلى خلق عظيم، لقد قال لجبريل: ((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً))[2].

فما أكرم وأرحم وأجدى هذا الموقف العظيم! الذي نبع من نفس عظيمة جليلة كريمة.

ولهذا فإن الناس عندما اجتمعوا إليه يوم فتح مكة، وقال لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم»[3].

وتتصل أسباب هذا الخلق، وتمتد من تلك القدوة السامقة لرسول الله محمد ﷺ إلى الراشدين والتابعين ثم إلى صلاح الدين الأيوبي وإلى حسن البنا، الذي قام أحد أتباعه مدفوعاً ببعض حظ نفسه، يهاجمه على صفحات الصحف، فلم يزد الإمام رحمه الله في الرد عليه عن القول له في إحدى الصحف: (والمؤمن يردعه إيمانه)، فأوقف ذلك الرجل سيل هجومه. ولننظر في حديث رسول الله ﷺ إذ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[4]. ولنتعظ، فإن عناصر الصحوة اليوم هم رعاة دعوة الله، فليكونوا رفقاء، ولا يكونوا حطمة، فينفر منهم الناس.

هـ- وأن يكون متواضعاً في كل شيء من غير ذلة.

وهذا الخلق ضد الكبر، الذي ذمه رسول الله ﷺ بقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[5].

---

(١) الأعراف (١٢).
(٢) متفق عليه.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير المجلد الثالث ص ٥٧٠ طبعة دار المعرفة (بيروت- لبنان/١٩٧٦).
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.

وقد قال الله تعالى بحق المتكبرين: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[١].

فالكبر يصرف أصحابه عن فهم آيات الله، كما أنه يصرف الناس عن إتباع الحق، وهو عامل رئيس في إبعاد المتصفين به عن فهم أسباب نجاح الدعوات وعن انتقاء الوسيلة المناسبة لإيصالها إلى الناس، وبالنتيجة فهو قاتل الدعوات، ووائد حيويتها وانتشارها.

وعلى العكس من ذلك فإن التواضع مائدة الدعوة والدعاة، وممهد السبل أمامها، وفاتح القلوب لأصحابها وعناصر صحوتها.

ومن الدروس العملية في فصل التواضع، وبيان وخيم عواقب الكبر، ما حدث يوم حنين: فقد ورد الحديث عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[٢].

لقد كانت الهزيمة بسبب العُجب بكثرة العدد، ولو تواضع المسلمون وقتها لله لما حدث ما حدث، ومن التواضع أن يتذكروا بأن الأمر بيد الله، وأن النصر من عنده، وليس بالكثرة.

ولقد عدَّ رسول الله ﷺ من المهلكات البغي والفخر الجاهلي: «إن الله أوحى إلـيَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[٣].

وإذن فتواضع الداعية في نفسه، وتواضعه في طعامه وشرابه، وتواضعه في مسكنه، وتواضعه في ملبسه، وفي حركاته وسكناته هو الذي يوطئ الأكناف ويرقق القلوب، ويفتح الأفئدة والعقول للحق، وعلى عكس ذلك فإن الكبر يهلك السلطان ويوقف القبول، ويحجب التوفيق، ويكثر الأخطاء، لأنه يمنع صاحبه من نعمة الاستشارة، ويقعده عن الاستزادة من العمل

(١) الأعراف (١٤٦).
(٢) التوبة (٢٥).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم.

الصالح، لعجبه بقليل عمله، إلى آخر ما هنالك من أضرار.

و- أن يكون شجاعاً:

- في الموقف الحازم.
- وفي الرأي الصواب.
- وفي الإقدام والقدوة.
- وفي قول الحق من دون خشية.

ومن المواقف العملية المفيدة، نذكر موقف رسول الله ﷺ يوم حنين، وكيف كانت شجاعته سبباً في كسب المعركة في النهاية، رغم ما أصابهم في بدايتها من الهزيمة نتيجة العجب بالكثرة، إذ كان ثباته وقربه من الأعداء ونداؤه لأصحابه الذين ترددوا في البداية عوامل قوة في الحملة التي حملها جند الإسلام، فحقق الله لهم النصر في النهاية، وهنا لابد من الإشارة إلى مواقف شجاعة كانت لها آثار مصيرية في تاريخ الإسلام منها:

ونذكر في تاريخ الإسلام وحتى عصرنا الحاضر: موقف خالد في اليرموك، وقبوله بشجاعة قرار تنحيه عن القيادة، ومواقف صلاح الدين الشجاعة مع الصليبيين في موقعة عكا، حيث إن المرض كان قد أنهكه، ومع ذلك فلم يغادر أرض المعركة مما كان له عظيم الأثر في بلاء جنده وصبرهم، وموقف الإمام الشهيد حسن البنا الذي تصدى لحملة حكومة فاروق على دعوة الإسلام والإخوان، بعد أن أفرغت حكومة النقراشي الساحة من الإخوان بسجنهم ومصادرة ممتلكاتهم وأبقت الإمام وحده خارج السجن، فلم يستسلم ولم يهن، مما كان له أكبر الأثر في صمود إخوانه داخل السجون وفوز الدعوة ومجيء الفرج وامتداد الدعوة والثبات.

ولا ننسى في هذا المجال موقف سيد قطب (رحمه الله) وشجاعته الفذة، في مواجهة الباطل بكلماته الحقة، مما كان له أحسن الأثر في صمود الناس على حقهم، والدعاة على مبادئهم. والشجاعة المطلوبة للداعية ليست مقصورة على ساحات النزال والمعارك وحسب، بل إن الشجاعة هنا عامة، فأخذ أمر الإسلام بقوة في هذا العصر شجاعة، والقدرة على تحصيل الأخلاق الفاضلة والتميز بها في عصر فسد فيه الذوق شجاعة، وتنفيذ الأوامر بسرعة ودقة شجاعة، والصبر على مكاره تصدي الطغاة للدعوة وشظف العيش نتيجة لذلك شجاعة، ومخالفة هوى النفس وكظم نوازعها تجاه الرأي الجماعي بإصرار شجاعة.

إن الشجاعة المطلوبة من عنصر الصحوة، هي الإقدام في كل عمل يؤدي إلى تقدم دعوته في معترك الصراع العصري.

المبحث الثاني من الباب الثاني

الانتقال إلى الميدان

البند الأول: سلبيات الوقوف عند حفظ المعارف

١- مقدمة:

عندما يصهر الإنسان روحه وجسده في معادلة الرضى الربانية، وينطلق في معركة التحدي الميداني في خضم تلك المعادلة، لابد له أن يخلع كل راية أو شارة ترفض الانضواء تحت عزة ومجد الإسلام – دين الله الخالد -.

وهو إذ يفعل ذلك لا يفعله تعصباً منه، ولا تطرفاًَ كما يحب البعض- ممن دان بفكره وكيانه وحماية وجوده للفكر الغريب- أن يصفوا به مسلم اليوم....

وإن ما يجعل المسلم رافضاً لكل تلك الرايات، وداخلاً تحت معادلة الرضى الربانية، هو القناعة الأكيدة، التي تصل إلى مخ العظم فيه، بأن هذا الإسلام هو مأرز البشرية في نهاية المطاف، وهو منقذها من التخبط والتيه. وإن مما يزيد ويؤكد هذه القناعة في أعماقه: ما يراه دائراً في الساحة البشرية يومياً. من غياب للحضور الإنساني في التعامل العالمي والمحلي والإقليمي، رغم ما تتباهى به مظاهر هذا العالم، من علم و (تكنولوجيا)، ومن تشريعات تصدر وتتكدس في بطون الكتب والنشرات، تتكلم عن حقوق الإنسان، وما يكون له أو عليه، بينما يغص ميدان العمل بالانتهاكات الصارخة الفاجرة لإنسانية هذا الإنسان، في عقر دار مخرجي هذه التشريعات والتعليمات وفي غير دارهم وعلى أيديهم بالذات، مبرهنة على أن هذا الذي ينطلق فيه البشر مهتدين بأهواء فئات منهم أو مجموعات – كثرت أم قلت – ليس هو الذي أراده الله لهم، وهو الخالق، الذي يعلم ما يصلحهم، ويعلم أساليب تنفيذه فيهم. ويريد لهم السداد في سيرتهم الحياتية.

ويمكن القول هنا: إن فائدة هذا الذي يراه المسلم، من سوء الفكر وسوء التنفيذ على الساحة العالمية، لا تنحصر في زيادة القناعة بما لديه من إيمان وفكر، بل هو إلى جانب ذلك عامل مواساة وتثبيت أيضاً لعنصر الصحوة الإسلامية؛ إذ إن شعور هذا العنصر وشعور حركته بمجموعها: بأن ما لديهم يشكل نموذجاً فكرياً متفرداً، يدفعهم إلى الثبات عليه، والتمسك به، ومن ثم

إلى استلهام القوة المعنوية في السعي إلى تنفيذه، وإهدائه إلى البشرية، وتحمل المشاق الكثيرة في طريق الوصول إلى ذلك، وهذا هو ما نسميه الانتقال من مرحلة فقه المعارف إلى مرحلة الميدان، التي تجعل لهذه المعارف وجوداً حقيقياً في عالم الواقع، ترنو إليه عيون الجماهير، وتتلمس إيقاعه العملي اليومي، بعد إذ لم تصل إليه في بطون الكتب إلا النخب من الناس، الذين يتعاملون مع المبادىء بمشاعر أكاديمية باردة.

٢- سلبيات الوقوف عند حدود حفظ المعارف

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[١]. وقد قال علي كرم الله وجهه: (اعقلوا الخير إذا سمعتموه عقل رعاية، لا عقل رواية، فرواية العلم كثيرة، ورعايته قليلة)[٢].

جاء في كلام الحسن البصري (رحمه الله): (ليس الإيمان بالتمني، وبالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل).

قال ابن المقفع في الأدب الكبير والأدب الصغير: (أقرب الناس إلى الله أنفذهم في الحق علماً، وأكملهم به عملاً... وأرضاهم في الناس أفشاهم معروفاً، وأقواهم أحسنهم معونة)[٣].

من ذلك كله نعلم أن الإسلام لم يجعل تحصيل العلم غاية بذاته، بل إن تحصيله وسيلة حميدة للوصول إلى تنفيذه والعمل به، (التلقي للتنفيذ) كما قال سيد قطب (رحمه الله) فإذا كان حفظ العلم وتعهده في الذاكرة، يُبتغى به رضوان الله، فإن العمل بذلك العلم هو كمال وجود المسلم، في حومة الرضى الربانية التي تمثل غاية الغايات عنده. إن الإنسان المسلم عندما يفهم الآية الكريمة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٤].

على أنها تكليف له بالعمل لإعمار الأرض، على ضوء العلم الذي وهبه

---

(١) حديث رواه مسلم في صحيحه.

(٢) من كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لحسين بن محمد الراغب الأصبهاني مجلد (١) ص٣٥ دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص٣٣ دار صادر/ بيروت.

(٤) الأحزاب (٧٢).

الله إياه – سواء منه العلم الشرعي أو العلم التقني والحياتي – فإن الحياة الإنسانية عندئذ تصل إلى الهدف المنشود، الذي وضعه رب الوجود، ضمن صيغة تحقق سعادة البشرية ورغدها. وهو ما بينه رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: (الإيمان والعلم قرينان، لا يصلح كل واحد منهما إلا مع صاحبه)(١).

ومن هنا تأتي قيمة تحويل العلم المحفوظ في الصدور والمذخور في القلوب إلى واقع ميداني يومي يحيا به المسلم رغباً ورهباً، إذ بدون ذلك لا يمكن أن ننتقل بالإسلام من بطون الكتب إلى واقع الحياة. وعلى العكس من ذلك، فإن الاحتفاظ بمباديء ومعارف هذا الدين في العقول وحسب يؤدي إلى السلبيات التالية:

أ. أن يكونوا نسخاً مكررة من علم هذا الدين وفكره ومبادئه بدون تطبيق، وقد كان من الممكن الاستغناء عن ذلك بآلاف النسخ من الكتب، التي تمتلئ بالعلم من كل فن ولون، ونوفر على أنفسنا عناء الجري وراء تلقي العلوم وحفظها لتخزينها والتعامل معها ببرودة عقلية وفكرية جامدة. وقد مقت الله تعالى هذه الحالة بقوله جل من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾(٢). كما حذر رسولنا الكريم ﷺ كل العلماء من هذا الوضع وحضهم على علم فعال في الميدان وذلك «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»(٣).

وقال ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقاً، فهو بأفضل المنازل»(٤).

وقال ﷺ دالاً على أن العلم يجب أن يتعدى الحفظ إلى العمل به «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»(٥).

وقد جاء في كتاب الأستاذ الفرنسي «روجيه جارودي»: (مرحلة تعفن التاريخ وحضارة اللامعنى): «الثقافة إذا فصلت عن التأثير في البنى الاجتماعية تتآكل وتتفسخ، وتسلم الجماهير المتشظية إلى قوى التلاعب الإعلامي).

---

(١) رواه الحاكم وصححه.
(٢) الصف (٢).
(٣) رواه مسلم في صحيحه.
(٤)رواه الترمذي وأحمد وهو حديث صحيح.
(٥) متفق عليه.

ومن هنا كان واجب المسلم أن يتحول من مخزون للمعارف النظرية والعملية إلى ضارب بمعولها في جدار الحياة الصلد، كي يصبح كادحاً كدحاً يلاقيه: وعندئذٍ توطأ له أكناف الرضى عند الله في مقعد صدق يهنأ به، وأما عند الناس فتمهد له سبل القبول والاستجابة وحياة واعدة، تمتد على استقامة المبادىء المذخورة، وترسو في موانئ الأمان التي تعج بالعلم والتقنيات المضبوطة بالقيم، واحترام الإنسان للإنسان.

إن عقل المسلم ما يزال يسعى في هذه الدنيا إلى العمل بما تعلم بكل خلّة تخرجه من تكرار النسخة التي عند أخيه، وتجعله في موضع القدوة التي تنضج بسخونة الميدان، وتحرك كل من حولها بسلطان المشاركة الإنسانية الحميمة. ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

فالشهادة على الناس لا تستكمل أركانها إلا إذا اكتمل في حاملها اقتران العلم بالعمل، فتكون فعاليتها عندئذ باللسان والبيان، كما تكون بالفعل والعمل في الميدان. وهذا مصداق قول الشافعي (رحمه الله): (من وعظ أخاه بفعله كان هادياً له)، وكذلك قول وهب بن منبه التابعي الجليل: (صفة المسلم أنه يقتدي بمن قبله، وهو إمام لمن بعده)، وقد أكد ذلك قول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾(٢).

والآية التالية لم تدع لأحد مجالاً لتكهن، في مجال الخروج من المعرفة النظرية إلى التطبيق العملي لها، الذي ينقل حال المسلم من وضع يمكن التقول فيه من قبل الآخرين إلى وضع حياتي قائم منظور، لا يقبل الاحتمالات في الحكم عليه. فلنقرأها ونتدبرها: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ **[البقرة: ١٧٧]. وهذه هي أسس المبادىء**

---

(١) البقرة (١٤٣).
(٢) هود (٨٨).

والمعارف النظرية.

ثم تكتمل الآية.. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه هي جوامع العمل: بذل المال، والوفاء بالعهود، وإقامة العبادات والصبر على المكاره، وإقامة الجهاد بمعناه الواسع، والصبر على الشدة فيه. فإذا تحقق ذلك للمسلم فهو الصادق العارف، العامل التقي، الذي ينشيء الله على يديه قيم المجتمع المسلم، ويبتعثها بعد موات وسبات.

إن مجتمع الصحوة في هذا العصر- وفي كل عصر – يجب أن ينشغل أفراده بما هو خير، ألا وهو العمل بالمعارف، وإلا فإن بقيت عناصر الصحوة مشغولة بتحصيل المعارف النظرية وحفظها، وإيجاد نسخ كثيرة مكررة من كتب العلم، فإن هذه الطريقة من التربية تنقلنا إلى السلبية الثانية وهي:

ب. أن تنشغل الصحوة بالجدل فيما بينها، ويختلط الأمر عليها داخل صفها وعند الناس والجماهير، وفي كل ذلك إخفاق وانحسار لامتداد الصحوة، وتوقف لعملية الإضافة النوعية المكانية، التي بدأت تحققها صحوة المسلمين في هذا العصر، ولقد علمنا التاريخ أن الحركة الإسلامية ما دامت مشغولة بعملية التزكية الفردية والجماعية، ومن ثم بعملية الزحف المطرد نحو تعميم هذا الإسلام والخير على الجماعات والشعوب بالقدوة والعمل فهي بخير وعافية وتقدم، وهذا ما كان من هذه الحركة في عهدها الأول زمن مُبلِّغ الرسالة رسولنا الكريم محمد ﷺ ومن ثم في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، ولكن عندما انتقلت هذه الحركة من مرحلة ورشة العمل الفردية والجماعية بالمباديء والمعارف والأسس، إلى مرحلة توقف هذه المعارف والمباديء في العقول وحسب، وراحت تمتد في ساحة العمل الميداني مخالفاتٌ لتلك المعارف والمباديء، بدأت تظهر على الساحات سلبيات ذلك التوجه، حيث ظهرت معارك الجدل، وبرزت الفرق، التي راحت تتعامل مع هذا الدين ببرودة العقل، وباستعارة الفلسفة اليونانية وغيرها، تاركة حرارة العواطف وحماس الجوارح، وانطلاقة الحركة الأرضية الفاعلة، وما إن

توغلنا في العهد العباسي حتى توقف أو كاد يتوقف زحف الإسلام – عن الحركة الموّارة، واكتفى أهل الدعوة بما حُصِّل من قبل من فتح مبين، وراحوا يتحاربون فيما بينهم بالكلام والفلسفات، التي دخلت ببرودتها وجهلها على حرارة عقيدتهم وبساطتها، فجمدتها في القلوب والرؤوس، ثم عقدتها على الألسنة وفوق المنابر، بحيث أصبحت عصية على فهم الإنسان العادي – ابن الجمهور – واستمر مثقفو هذه الدعوة المخلصين يتناقشون فيما بينهم، لا يهتم بما يقولون من ابتعد عنهم عدة أذرع، وأصبحوا محتكرين حقيقيين لهذا الفكر البارد، الذي كرس جمود الحركة، بل وقَّعد ذلك الجمود وأصله.

وما نراه اليوم من معارك جانبية بين عناصر الصحوة، وجدل عقيم حول أمور هي إما من النوع الذي عفى عليه الزمن ولم يعد له وجود في عالم الواقع، من مثل: الخلاف الذي يدور على السطح حول حق علي، وحق معاوية رضي الله عنهما، وإما معارك حول أساليب العمل ومن المخطيء ومن المصيب، وإما معارك شديدة وتبادل للتهم حول فروع الفقه مما أجاز شرع الله نفسه أن يختلف الناس في فهمه وطرق تنفيذه وأدوات ذلك التنفيذ.

إن ما نراه اليوم من تلك المعارك يذكرنا بالمعارك التي دارت بين المثقفين في أوائل الجنوح عن الحركة والتحول إلى الجدل، وذلك منذ منتصف القرن الثاني الهجري، غافلين عما علمنا إياه رسول الله ﷺ من الابتعاد عن مثل هذا الموطن، وذلك في الحديث الذي أخرجه الشيخان: (اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا)(1) فإنه يرشد المسلمين إلى أن يتوقفوا عن المتابعة إذا وجدوا في أنفسهم جدلاً لا يستطيعون حسمه، حتى لا يتصعد الخلاف، ويصلوا به إلى المراء.

إن على رجال الصحوة أن يدركوا ما لهذا الاتجاه من مضار على صفهم أولاً، وعلى إقبال الناس عليهم ومدى الانخراط فيما يدعونهم إليه، وإنه ليفتح الثغور لدخول الأعداء عليهم بسهولة. إن هذا الأمر يضيع على أهل الصف معرفة الرؤية السليمة والخطوة الحكيمة، فتضل العقول، وتتوه بين شتى الآراء والكلام، وفي هذا ما فيه من انشقاق الصفوف، وتفرق الكلمة، وتباعد القلوب وتنافرها، ومن ثم الانشغال بتقليب وجهات الكلام عن العمل المجدي النافع.

ولما تنظر الجماهير إلى كل هذا الجدل والصراع واختلاف الكلام، فإنها

---

(1) مسلم والبخاري.

عندئذٍ تؤثر العافية، فتبتعد عما لا تستطيع التمييز فيه بين الغث والسمين، فتزهد حينئذٍ بأهله، هذا فضلاً عن أن مثل هذه المواقف تتيح للمتربصين بالصحوة وأهلها الفرص للاختراق والدخول من الثغرات الواسعة في جدار الحركة التي أحدثتها مثل تلك التوجهات من المراء العقيم.

ومن المفيد هنا أن نضيف بعض النقول التي تؤكد هذا المعنى أو تشير إلى خطر التغافل عنه.

يقول الدكتور طه جابر العلواني في كتابه: (أدب الاختلاف)، الصفحات (١٤٩- ١٥١): (وظهر ما اصطلح على تسميته (الصحوة الإسلامية)، وما كان لأعداء الإسلام على اختلاف نحلهم أن يخلوا الساحة لهذه الدعوة المباركة، وما أكثر الأسلحة التي يستخدمونها لمحاربتنا – وبعض أبناء جلدتنا الذين يعيشون بين ظهرانينا من تلك الأسلحة حيث لم ير بعضهم بأساً في أن يكونوا معاول هدم بأيدي أعداء الأمة – وقد تمثل ذلك في أجهزة كثيرة، تحاول الكيد للعصبة المؤمنة، وتحول بينها وبين تمهيد السبيل لاستئناف الحياة الإسلامية، مستعملة شتى الأسلحة.. فإذا بهذه الصحوة المباركة تواجه التحدي المقيت المرسوم بـ (الاختلاف) فيما تواجه من تحديات هائلة وكانت التحديات الأخرى كافية لاستنزاف جهد العاملين المخلصين.

وإذا بكثير من الجهود تفتت على هذه الصخرة المقيتة، فبدأنا نرى شباباً ينتسبون إلى السلفية، وآخرون ينتسبون إلى أهل الحديث، وفريقاً ينتسبون إلى المذهبية، وآخرون يدعون اللامذهبية، وبين هؤلاء وأولئك تتبادل الاتهامات المختلفة، من التكفير والتفسيق والنسبة إلى البدع والانحراف).

وما يحز في النفس أن يعمل بعض أبناء المسلمين على تحطيم أجنحة الصحوة، وتكبيلها بقيود الخلاف غير المنضبط، حول ما يستحق من الأمور ومالا يستحق، الأمر الذي شغل المسلمين بأنفسهم، وبدد الكثير من طاقاتهم، وخلط أمامهم الأشياء خلطاً عجيباً).

ونضيف هنا القول: إنه بينما أعداء هذه الأمة المتربصون بها ينظرون إلى هذه الخلافات وهم فرحون فقد أصبحت هذه الخلافات أهم العوامل – عند المتربصين – في تفريق جمع الصحوة، وإهراق الطاقات، وجعلها في دائرة التجاذب، وهم في هذا لا يفرقون بين فريق وفريق من فصائل ومجموعات هذه الصحوة. ولنقرأ هذه الفقرة من مقال لأحد الأعداء ثم لنتدبر:

يقول أموز بيرلمتر في الواشنطن بوست ١٩٩٢/١/١٣ ما نصه:

(إن الأصولية الإسلامية هي حركة عدوانية، وقائمة على الإرهاب والفوضى، كالحركات الإرهابية، والحركات البلشفية والنازية.. ولكن لا يوجد أي بصيص من الأمل باحتمال أن تقوم جبهة الإنقاذ في الجزائر أو غيرها من الحركات الأصولية بالمساومة مع الديمقراطية، إن من المؤكد أنه في الوقت الذي تصل الأصولية للسلطة في أي مكان، فإنهم سوف يسحقون المعارضة السياسية والعلمانية والحرية الفردية وحق الشعب في التعبير عن رأيه عبر الانتخابات، تماماً كما فعل الخميني.

إن هذه الحركة لا يجوز الخلط بينها وبين الديمقراطية بل يجب وأدها منذ الولادة).

لذا كان أمر ربنا للمسلمين بتوحيد أو تنسيق الجهود واضحاً جازماً، وقد برز ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾[2] توجيهاً حركياً لأهل الصحوة، ليكونوا إخواناً ربانيين في وحدة جامعة، رغم الاختلافات الفرعية والتنوع اللوني والوسائلي، ثم ليكونوا عمليين، قادرين على تحويل النظريات إلى أفعال ميدانية رفيعة المستوى، تدل على سمو الأفكار المنطلقة منها وعظيم النفوس التي صاغتها.

وهذا يدعونا إلى التحول للكلام عن كيفية النزول إلى الميدان ونحن ما زلنا في طور الدعوة، ولم تتح للإسلام حتى الآن إمكانية تنفيذ مبادئه وتطبيقها من خلال المؤسسات والدول.

٣- مقدمات في النزول إلى الميدان

أ- التوضيح

ليس من السهل أن ننتزع للحق الذي نؤمن به لقمة سائغة من فم هذا الوحش المتفجر – عالم اليوم – الذي تطحن آلته الجبارة عصي الحَب والنوى. فالشمس الشاحبة التي تضخ المباديء والقيم، لا يمكن أن تمطر النور بغزارة من جديد، إلا إذا تعهد معالجة شحوبها رجال ميدانيون، تسلحوا بالعزم والعلم وإرادة الحياة، تؤازرهم في ذلك عقيدة الرضى الربانية، وتحدوهم فيه محبة الإنسان والقدرة على معايشته في مواقعه، والتضحية من

---

(١) آل عمران (١٠٣).
(٢) التوبة (١٠٥).

أجل إنقاذه، والارتفاع به من مستوى الحضيض، الذي أنزلته إليه قيم العصر وأدران المادة وحضارة العنصرية والهيمنة ونهب ثروات الآخرين.

أن نعيش في غرف حفظ العلم الصماء، ثم نطلب من الآخرين أن يؤمنوا بما نحفظ، فهذا لا يمكن أن يصنع الحياة التي يريدها الله لنا. نريد لحفظ الرجال أن يتعرى للميدان، ويطرح نفسه جلياً بارزاً، على المحك، تقطر منه رائحة العرق والدم والبذل والريادة. عرضوا عملكم ومبادئكم يا رجال الصحوة للشمس، وابذلوها للناس – هكذا – تحت الشمس الصيفية، دون مواربة، ولا خفاء، وابذلوا الحوار العملي لها، مع صحيح الكلام والبيان عنها، تجدوا الآذان الصاغية، والسواعد الناجزة، والقلوب الحاضرة، والحركة الموارة الإيجابية.

إنه من الممكن أن يستمع لصاحب الكلام وحافظ العلم الكثيرون، وإنه من الممكن أن يتبعه الأقل القليل، إلا أنه عند المحك، لن تجد معه أحداً، ولن يقف في صفه إلا النادر من الناس.

رسول الله ﷺ لو لم يكن ذلك الصادق. الأمين.. صاحب الخلق الحكيم.. الذي لا يغشى مجالس اللهو في نوادي قريش، المجرب في تجارة خديجة عليها رضوان الله لجاءت الاستجابة لصدعه وأمره بطيئة عندما أتاه أمر السماء – والله أعلم – فطبع البشر وسمتهم أنهم بالعمل يقتدون، وبالقدوة يهتدون، وبالريادة والمبادرة الميدانية النقية يعجبون. فبيان ناصع بلا عمل ولا قدوة، يبقى محدود الانتشار، يتداول داخل صفوف الغرف، ومجالس الخاصة، ولا تنتفع به العامة إلا ببطء.

ب- ماذا نعني بالنزول إلى الميدان؟

إننا نعني بتعبير النزول إلى الميدان: أن تغادر الحركة الإسلامية العامة التي بلغت مرحلة النضج، المراوحة في مربع الاعتذارات، وأن تتحرك بخطى ثابتة مدروسة، تخرجها من إسار العيش داخل المثاليات، التي لا تلامس الواقع والحياة المعاشة اليومية، إلا ملامسة النقد واللعن، أو التعب والاعتذار.

وباختصار شديد، أريد من هذا التعبير، أن تدخل الصحوة الإسلامية مرحلة العمل المبرمج، المنخرط في الحياة الواقعية، أساساتها ثابتة، مستوحاة من روح الشريعة وامتداداتها التطبيقية متطورة مرنة موضوعية، تتعاطى مع حركة المجتمع ومصالحه ومتطلباته بروح الفقه المرن، الذي لا يخرج عن أسس وثوابت الإسلام، وفي الوقت نفسه لا يجمد عند النظرة الماضية التي أنتجتها فهوم ونظرات حكمتها ظروف اجتماعية وسياسية

وموضوعية مغايرة.

وعلى هذا فإن الكلام في هذا الموضوع سوف يبين كيفية النزول إلى الميدان من الناحية الجماعية لحركة الصحوة، بعد أن بينا فيما سبق المطلوب من فرد الصحوة تجاه مجتمعه.

ولكي تتحدد معالم الموضوع الذي سأطرحه، يجب أن أبين البنود التي سيتناولها، وهي:

أولاً: البرمجة.
ثانياً: المؤسسات المكافئة.
ثالثاً: العلنية.
رابعاً: الجماهيرية.

أولاً: - البرمجة

إن حركة الصحوة الإسلامية مشروع حضاري، يحمل في طياته وجوانحه عوامل التغيير في هذه الأمة، معتمدة أولاً وأخيراً على العودة للالتقاء بهويتها الحضارية، وخصوصيتها العقدية، التي تحمل بذور التقدم والنماء والقوة. وبما أن أي حركة تغيير لا يمكن لها أن تحقق ما تصبو إليه، إلا من خلال وضوح الرؤيا، المبنية على غايات وأهداف محددة، ووسائل عملية معقولة، قابلة للصرف في سوق التعامل اليومي، فإن الصحوة الإسلامية محتاجة أيضاً إلى برمجة حركتها على ضوء ما ذكرنا، بحيث تستطيع من خلال البرنامج الوصول إلى الغايات بخطى مرسومة نامية متطورة مرنة.

ويجب أن يتضمن هذا البرنامج ما يلي:

١. مشروعاً سياسياً تبين فيه الأمور التالية:

- الأسس العامة للعمل السياسي الإسلامي (الثوابت والمتغيرات) مع الأدلة.
- بيان عام توضح فيه الأهداف والوسائل المتبناة.
- توضيحات تفصيلية لأمور تثير الجدل، مثل: طريقة التعامل مع الأنظمة، التعددية السياسية، والتعددية الدينية، الحرية الفردية، الأخلاق والسياسة، انتقال السلطة، العلاقات الدولية، والعلاقات مع الغرب بصورة خاصة، الشورى والديمقراطية، التعامل مع السلطة القائمة.... وغير ذلك.

ويجب أن تبنى هذه التوضيحات على فتاوي من السياسات الشرعية

تراعى الظروف الموضوعية، والروح التي تجذب المؤيدين، ولا تنفر المخاطبين.

- كما يجب أن يتضمن المشروع الأساليب التي توصل الصوت الإسلامي إلى كل قطاعات المجتمع، وتجعل خطابه مقبولاً وجذاباً، بحيث يتبنى الخطاب آمال الناس واهتماماتهم المشروعة، الواقعة في حدود الإمكان، بحيث يجعل المشاركة السياسية من رجال الصحوة لقطاعات مجتمعهم مشاركة فعلية ميدانية، وعلى مدار الوقت: (في الطرح والتبني العملي، والريادة، والتنفيذ، والتضحية).

٢. مشروعاً اجتماعياً يتضمن ما يلي:

- سياقاً ثقافياً إسلامياً، يوحد الأفكار تجاه: الحلال والحرام بصيغة مبسطة: المرأة، العمل والعمال، الملكية، حقوق الإنسان، البيئة، العلم والتعلم، دور المسجد والمدرسة، الصحة، الاقتصاد البيتي، العلاقات البيئية، التعاون (كل ذلك يربط بالإسلام وتعاليمه).
- سياقاً عملياً متعدد الأساليب والوسائل، كي يتم التواصل بين أفراد البيئة ورجال الصحوة، بحيث تُبنى الثقة التامة، ومن ثم تكون حركة المجتمع وكأنها حركة الصحوة ولا فرق: (الجمعيات، النوادي، النقابات، المنتديات، المشاريع الأحزاب...الخ).

٣. مشروعاً اقتصادياً، يتضمن:

- مساقاً نظرياً للتوعية، يشرح أموراً اقتصادية وتعاملات حديثة، تحتاج إلى إيضاح حكم الشرع فيها، مثل معاملات البنوك، وكثير من المعاملات الاقتصادية الحديثة التي تثير الجدل، ويجب نشر ذلك على نطاق واسع وفي مختلف القطاعات.
- ومساقاً عملياً، يضع رجال الصحوة في خضم التعامل اليومي الأصعب، لأنه تعامل ما لي وحياتي، ويجب أن يكون حادي الحركة هنا هو المساعدة، والدعم، وكسب المواقع للمبادئ والعقيدة، ويشكل هذا المساق باباً واسعاً للحركة، كي تثبت وجودها وتطبق أفكارها النظرية وتقدم إضافات بارزة (شركات، مؤسسات اقتصادية واجتماعية، مستشفيات، مدارس مشروعات حيوية وسياحية) إلخ.

وهذا يدخلنا في الموضوع الثاني من هذا البحث.

ثانياً: المؤسسات المكافئة

ومن أجل تغطية البرنامج الموضوع للنزول إلى الميدان ومن أجل تحويله إلى حركة وعمل نقترح بعض الأفكار التي تحرض على المزيد من

الإبداع والانخراط في ميادين التنفيذ والتطبيق، ولا نعتبرها قوالب جامدة لا يوجد غيرها.

وعلى هذا فإننا نقول: إن الصحوة الإسلامية العالمية بحاجة إلى:

١- قيادة تقود العمل بميثاق متفق عليه بين الجميع، وذلك لتدبير وتنسيق الحركة بين كل الفروع التي لا خلاف عليها عند الجميع، فهي بهذا الاعتبار يمكن أن تكون بمثابة (أمانة عامة) لمؤتمر ينسق خطوات العمل بين فصائل الصحوة كلها في جميع الساحات.

وباختصار شديد يمكن أن نشبه هذه الأمانة بالحكومة الفدرالية المركزية، حيث يكون لها حق توحيد السياسة الخارجية (العلاقات) لحركة الصحوة تجاه العالم.

٢- مؤسسات تطبيقية ضربنا أمثلة عليها في الفرع (أ) من هذا البحث ونضيف عليها هنا، مؤسسات مالية، شركات خدمات غير ربحية، جامعات، .... الخ

ثالثاً ورابعاً: العلنية والجماهيرية

إن هويتنا الإسلامية معرضة في هذا العصر لهجمات باطشة متلبسة بصور متعددة، آخذة أشكالاً وآليات كثيرة ومعقدة.

إن تقلب التيار الإسلامي الحركي نفسه والالتباس الحاصل في صور الحياة الحديثة، وما تقتضيه من مستلزمات وتقنيات، وما تحمله تلك التقنيات من فكر وثقافة وخلفيات، تنفذ إلى الأعماق من ميول ونزعات الإنسان، من خلال المحسنات النوعية والرفاهية التي تقدمها تلك التقنيات الحديثة لبني البشر، إن ذلك التقلب وذلك الالتباس إن هما إلا شكل من أشكال التحديات الفاعلة المغيرة على روح الإنسان المسلم وغيره لتقلبه مؤمناً بالحضارة المغيرة، ومتقلباً في أحضانها الثقافية وخلفياتها الفكرية دون أن يدري، ناهيك عن وضعه الذي يمثل – بالنسبة له – عقد إذعان داخل أطر الدولة الحديثة وصولجان هيمنتها الآسر وما تحمله هذه الدولة من مناهج وثقافة وفكر وبرامج عمل، كلها متأثرة إلى درجة كبيرة بحلقات الاستيراد الدائم للتقنيات الغربية، وما يختبئ في طيات تلك التقنيات من روح وأسس لا تنتمي إلى الأرضية أو إلى الروح التي يجب أن تكون أساسَ بنيانٍ فوق أرضنا العربية والإسلامية.

إن آلية الإغارة على هوية الإنسان المسلم اتبعت وسائل كثيرة، واختفت

داخل أجهزة متعددة، واستغلت الفراغ الفكري الذي أحدثه توقف الاجتهاد من ناحية أولى ثم حلول القوانين الوضعية محل التشريع الإسلامي الذي جمد على صيغ قديمة، وضعت لمجتمعات اختلفت ظروفها عن ظروف المجتمعات الحديثة من ناحية ثانية، وكان غياب القيادة المنتمية للإسلام، المتخذة منه نظام حياة كاملاً وعقيدة تطبع كل وجوه الحركة بطابعها، وذلك تنفيذاً لأمر الله في الآية الكريمة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1] وامتثالاً لبيان رسولنا الكريم ﷺ «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»[2].

وهكذا فقد كان مَثَلُ توجه أصحاب القرار في بلاد الإسلام كمثل قول الشاعر الفقيه ابن عبد البر الذي قال:

عجبت لنفس تبصر الحق بيناً	لديها وتأبى أن تفارق ما تهوى
وتسعى لما فيه عليها مضرة	وقد علمت أن سوف تجزى بما تسعى

وبناء على ما تقدم فقد كان موقف الحركة الإسلامية المعاصرة كموقف المتقلب في خضم الوغى، ينظر من حوله وفيه ما يرغب ومالا يرغب، غير أنه لا ينفك عن واجبه الذي ينطلق أساسه من قلبه وعقله ويقينه، حيث لا مناص له من مطارحة ذلك الركام المحيط الحوار والكلامَ والأخذ والعطاءَ، وذلك من أجل إيقاف ذلك المد الجارف من الضرام، الذي يغلق الطريق على كل نافذة خلاصٍ، ويهدم أبنية الثقة ويعوق صنع الحياة الخارجة على ذلك الضرام، الرافعة آية الاستسلام لصبغة الله، يراودها حب الإنسان، ويغشاها فضاء التوبة بهدوء الأحزان المغادرة إلى حيث تدفن في بقيع النسيان، وعلى هذا فإن تقديم الإسلام بثوبه العملي الميداني الخارج من غبار الركام الملوّح بسبل السلام لا يمكن أن يكون من خلال حركات سرية متقوقعة تصطاد الأفراد واحداً تلو الآخر، بينما تبقى الجماهير تكتوي بالنار ويردمها الركام، وتبتعد بها التجربة عن الروح الفردية للحركات السرية التي لم تخض الخضم الذي خاضته الجماهير بحلوه ومره وآلياته، التي تظهر للإنسان بألف لون ولون. وألف صورة وصورة، وهي لذلك ترفض النظريات الجاهزة التي لم تعانِ

---

(١) النساء (٦٥).

(٢) حديث رواه الحاكم وابن عبد البر كما أخرجه البهيقي عن أبي هريرة وهو صحيح.

الميدان، ولم تختبر في مخابر البرهان والتماسك والصدق. بل إن الجماهير هذه تنزع بطبعها وفطرتها إلى الاقتناع بما هو مطروح ومشرع تحت الشمس، وخارج من قلب التجربة والمعاناة، صافياً نقياً نافعاً للحياة، ومطهراً لها من كل الرجس والدنس الذي تتعرض له... إنها العلنية.. تلك التي تزين الجباه، وتعلن للملأ أن لا غياب في عتمة الدروب، وأن لا نقاء حقيقياً يكون بعيداً عن الانغماس في خضم الحياة والنضال من أجل الوجود، الذي لا يبعد العيون والعقول والأفئدة عن النظر إلى يوم المعاد والمآب إلى الله، فيذوب إنسان الدعوة مع كلمات خديجة رضي الله عنها عندما خاطبت رسول الله ﷺ بكلمات هن لب أخلاق الداعية إلى الله: (كلا والله لا يخزيك الله أبداً) لماذا يا خديجة رضي الله عنك: (إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[١].

إن مقاومة آلية الهجمة الغربية العلمانية الشرسة على مجتمعاتنا المسلمة تحتاج إلى حركة مكافئة، ظاهرة، غير باطنة، معلنة غير مخفية، تخوض الغمار تحت نظر الناس وملاحظتهم، يحدوها في ذلك القدوة والصبر، والأخذ بأكفأ الأسباب والوسائل، وأقربها إلى النفوس، وأوضحها وأشدها أثراً إيجابياً في العقول والقلوب.

إن بعض الفصائل في الحركة الإسلامية قد تضطرها الظروف المحيطة بها للكمون والعمل تحت الأرض، وليس هذا هو الذي أتكلم عنه في هذا المجال. إذ إن هذا أمر استثنائي لا يقاس عليه، لأن هذا الفصيل في هذه الحالة يرجع إلى التعامل الفردي، والصلة المحدودة الغامضة المحيرة مع الجماهير، لكن الذي أريد أن أقوله عن العلنية في العمل الإسلامي: هي التوجه العام في الحركات، وفيما يلي ذكر لبعض الأسباب التي تدفعنا إلى هذا الاعتقاد:

١- إن ما يواجهه التيار الإسلامي خاصة وجماهير أمتنا عامة هو حركة مواجهة جماهيرية علنية، تنقل الشعوب بأكملها – من خلال الإغارة الظاهرة والخفية وبآليات كما قلنا دقيقة ومعقدة – إلى الاقتناع بثقافة غربية علمانية، تطمس الهوية رويداً رويداً، وتغرقها في عمق تراكمات فكرية وثقافية، تضع الإنسان في حيز الهزيمة الداخلية، وهو يظن نفسه قد حاز العلم، وتعلق بالحضارة، والتقى طريق التمدن.
٢- إن العدو من الشراسة والخبث بحيث يحاول أن يفهمنا – نحن المسلمين – أن طريق السرية طريق آمن، ومضمون، وبعيد عن الأعين، ثم هو بعد

---
(١) حديث من السيرة النبوية/ ابن كثير ص ٣٩٤/٣٩٥/ طبعة دار المعرفة/ بيروت.

ذلك يفعل فعله في الجماهير، فهو يعزل الحركة، ويشكل الجماهير بروادها ومبادئها، ومن ثم ينقض عليها منفرداً بها، بوسائل شتى.

٣- إن طريق السرية والعزلة والتميز الشديد لابد أن تتجه في لحظة ما إلى إيجاد فكر وتنظير قليل الفاعلية، ضعيف التجربة الحياتية، واهن الصلة بالجماهير وحركتها، وطرق تفعيلها، ووسائل الاحتفاظ بهويتها، بعيداً عن الاستفادة من إمكانات العصر، وتقنيته وأساليبه وآلياته.

٤- إن التجربة أثبتت أن الحركة السرية نادراً ما تستطيع فرز القيادات القادرة على التكيف والمرونة وإثبات الوجود في المجالات العامة. وباختصار شديد فإن الحركات السرية قليلة الإمكانات الإيجاد العمالقة في الفكر وشؤون الحياة في ساحات الدعوة العامة الجماهيرية.

٥- إن الالتزام بوسيلة المؤسسات المكافئة يلزمنا بالتوجه نحو العلنية، إذ إن الهجمة على الشعوب الإسلامية ليست هجمة انتقائية، تغير على الأفراد واحداً واحدا، وتنتقي منهم من تشاء، لتضمهم إلى قافلة التغريب والعلمنة. وحسب بل هي بالإضافة إلى هذه الانتقائية تعمل بطريقة جماعية عامة. لذا.. فإن الهجمة تحتاج إلى مواجهة حاشدة جماهيرية شعبية وفي العلن؛ ومن حركات واضحة المسير، قابلة للصرف في سوق الإيثار والتضحية والقدوة، قريبة من أماني الناس وآمالهم وآلامهم، منخرطة في ساحتهم كجزء وطني صميم معهم وبهم وفيهم. منطلقة من حيز القطر العربي أو الإسلامي الواحد إلى خضم العالم العربي والإسلامي الواسع، ومن ثم لتتلوح كصدفة لامعة تخاطب الإنسان - أينما كان – بما يدغدغ طموحاته المشروعة وآماله الهادفة البناءة، من خلال لغة الأخ الحاني، والأب المعطاء، والأم التي تذوب لتضيء ليل الابن الشارد، وهذا يتطلب نبوغاً في تيار الإسلام، يبدو في المجالات التالية:

أ- نبوغ غير عادي في الفكر والفن الأدبي وغيره.

ب- نبوغ عالمي في العلم والتقنية، وما أكثر رصيد المسلمين في هذا المجال لو أحسن استغلاله.

ج- نبوغ في الدراسات والمنهجة. وهذه الفكرة ليس صعباً إنشاؤها ورعايتها.

د- نبوغ في السياسة والحرب والإدارة من خلال المسارات المتاحة.

هـ- فتوحات في الاقتصاد والأعمال وبناء المشاريع وهي أرض مفتوحة للجميع.

و- انفتاح اجتماعي على كل التيارات، وحوار بناء هادف مع كل التوجهات، يهدف إلى إيجاد صيغ تعامل بناءة ومنفتحة، وتقاطعات فكرية وعملية توحد الجهد وتوجهه، ومن ثم إيجاد تجمعات وطنية

وإقليمية وكذلك دولية، تنطلق بلا هوادة لبناء الجسور مع الإنسان، لإخراجه من داخل قبضة الحضارة المتعالية، التي لا ترى سوى برامجها ومصالح حاملي كبرها، ولا تعرف إلا حضارتها وفنها وإنسانها فوق هذه البسيطة؛ فهي تضرب يميناً وشمالاً، لتخضع جميع ساكني الأرض، ليؤدوا استحقاقات رفاهية إنسانها، بغض النظر عما يخلفه ذلك من آلام ودموع وجراح ودمار.

ز- ولا ننسى في هذا المجال الإعلام الذكي والخطاب المتوازن المرن الملتزم، فإن الهجمة الغربية الصهيونية الشرسة تتقدمها دائماً طلائع الإعلام، الذي يمهد الأرض ويوطئ الأكناف، ويقنع حتى الأقربين منا. ألم تنظروا إلى المصطلحات الهدامة وأهمها: الأصولية والإرهاب كيف غزت عقول وأقلام الأقربين من أبناء جلدتنا، على صفحات صحفهم، وفي صور تلفازاتهم، وعلى صهوات كل وسائل إعلامهم التي تلهج صباح مساء، لتضيف إلى وصف أي حركة إسلامية كلمة متشددة أو متعصبة أو أصولية، وغني عن الشرح ما توحيه تلك الكلمات من ظلال وأبعاد في ذهنية القارئ والرائي والسامع!

إن الإعلام الجماهيري إن لم يستطع أن يدخل من باب الإعلام الرسمي، فقد وفرت له التقنيات الحديثة وسائل كثيرة، يستطيع من خلالها تيار الإسلام أن يكون جماهيرياً وفاعلاً ومؤثراً – إلى حد بعيد، فهناك الشريط المسموع والشريط المرئي (الفيديو) والفضائيات، وفي الشبكة العنكبوتية مجال كبير وواسع وممتد لمن أراد الوصول إلى الناس.. وإيصال الكلمة الطيبة المهتدية بهدي الله إليهم.

المهم أن تتوجه حركة تيار الإسلام والصحوة توجهاً علنياً بمجموعها العام، ولا يضيرها ويعوقها عن العلنية أن تضطر الظروف فصيلاً أو أكثر إلى الكمون أو الحركة المحسوبة البطيئة، وذلك لأن الهجمة المواجهة علنية وشاملة وسريعة، فهي لا تنتظر المتباطئين بآلياتهم العتيقة التقليدية، المدفونة في تجارب الظروف غير المتغيرة، عند العقول الساكنة في التاريخ وحسب، وليس في الحاضر وعلائقه والمستقبل وتطلعاته والتاريخ وعبره.

وعلى ضوء ذلك يحق لها أن تنشئ من أجل حسن سير عملها وأدائها الأجهزة التالية:

١. جهاز معلومات.
٢. جهاز دراسات.
٣. أجهزة تنفيذية مثل:

سياسي، إعلامي، اقتصادي، اجتماعي، ثقافي، علمي، علاقات عامة، تخطيط، وكل جهاز من هذه الأجهزة له خطة عمل ميدانية، تصب فيها حركة جميع الفصائل الإسلامية.

- هذه المؤسسات العامة المرجعية لا تكون بديلاً عن التنظيمات العامة (الفصائل)، بل إن الفصائل الموجودة التي يقوم كل منها على ثغر من ثغور الإسلام، ترتب أمورها التنظيمية والحركية على أساس التنسيق مع حركة هذه المؤسسات وتقوم بالدور والواجب الذي يرسم لها، من خلال الأمانة العامة التنفيذية ومن خلال مقررات المؤتمر العام فكرياً وعملياً ومن خلال خصوصياتها وظروفها.

كما أن هذه الفصائل تقوم بعمليات تعديل وتطوير لأجهزتها ووسائلها وطرائق أدائها، حسب ما تقتضيه الحاجة الميدانية، التي ترصدها الأجهزة العامة، وتعطي فيها الرأي في كل وقت، على ضوء المعلومات المتوفرة والدراسات الموضوعية المتأنية.

وأخيراً: وليس آخراً نقول: إن عملية الانخراط الاجتماعي الميداني لحركة الصحوة ليس أمراً سهلاً ممهد السبل لين العريكة، بل إن فيه العرق والجهد والبذل والتضحية والمعاناة؛ إذ إن الدخول في المعترك السياسي العام يحتاج إلى صبر ومصابرة ومرابطة، على حدود انتظار المعاناة والصور غير المتوقعة من التعامل، التي تتضمن: الاتهام والشك، والمدافعة بالكلمة والرأي، واحتلال المواقع أو خسارتها، كما أن فيها التحمل والمعاناة المؤلمة، فضلاً عن الدخول في معترك المجال الاقتصادي الذي فيه المزاحمة والمعاملة والحيل غير الشرعية، والمعاملات المالية، والاستثمارات غير الإنسانية أحياناً، إضافة إلى أن الدخول في خضم المجتمع يحتاج إلى الصبر على حالات من الأوضاع المعوجة، وصور من التشكيك والملاحقة أحياناً، كما يحتاج إلى بذل الوقت والمال والجاه والراحة، وأخيراً يحتاج إلى الصبر على المنافسة والإخفاق أحياناً، رغم البذل والعطاء والتضحيات.

لكن ذلك كله قليل في جنب الله، وقليل إذا ما قيس بفرحة المؤمنين حين يرون أنفسهم وقد تحققت آمالهم وارتفعت بالاستجابة العامة لكلمة الإيمان وفعل القدوة من المؤمنين.

المبحث الثالث

تأكيد العلنية والجماهيرية ومقتضياتها

أ- علامات.

إن صنع الحياة الإسلامية، واستئناف السير تحت ظلال الهداية الربانية والنقاء مما جاء به سيد المرسلين ﷺ، ومن ثم – الخلاص من أغلال دفع استحقاقات الرفاهية الغربية، على حساب القيم والمثل والحقوق الإنسانية، وكذلك نبذ الشعار الذي يربط التقدم بترك الدين، ذلك الشعار الذي كبل أمتنا عقوداً طويلة من الزمان، وجعل مسيرتها تتخبط على غير هدى ولا علم ولا كتاب منير، وظل يخدم لسنوات طويلة برامج الأعداء، ترعاه وتقوده طبقة عريضة من أصحاب القرار السياسي والثقافي في دنيا المسلمين.

وهذا ما أبقى أمتنا على مدى العقود الماضية عاجزة عن فرز المواقف، وتحديد المصطلحات ومعانيها بدقة، إما بسبب الجهل، أو بسبب التجهيل المقصود، أو اللامبالاة التي وُضعت فيها الشعوب، من خلال الحرب الشعواء التي أوقد نارها أولئك الطافون على سطح الأحداث السياسية والثقافية والاقتصادية في شارعنا العربي والإسلامي. وبعيداً عن تكييف الغرب وتوصيفه لملائمات الحياة العصرية،التي تريد لأمتنا أن تعيش على هامش هذه الحياة ببضع شعارات، يوهم بها من لا يستطيعون التقدم إلا نحو السراب القاتل، غير مستوعبين مقولة بوش أثناء حرب الخليج: (إن هذه الحرب لم نخضها من أجل جالون نفط بل قمنا بها من أجل تحديد معالم القرن القادم).

إن استئناف الأمة لحياتها العزيزة لابد له من توجه إسلامي عام، داخل خطوط الصحوة، يبني منهجية العمل، على أساس من طرح تنظيم الحركة الإسلامية نفسه علانية، والخروج من أسر شعار سرية التنظيم، الذي قد يكون مناسباً لظروف كانت سائدة في عقود الخمسينات والستينات من القرن العشرين، يوم كانت النخب العلمانية في السياسة والثقافة تجدف في مواجهة الإسلام ودعاته، وتجلد ظهر كل من يبدي أي تعاطف مع هذا الاتجاه، بل وتجعل وجوده مشكوكاً فيه.

إن كثيراً من أهل القرار السياسي ما زالوا يحملون طابع تلك الأيام، إلا أن عرام الصحوة الإسلامية المباركة، وفرض نفسها على الشارع العربي

والإسلامي، توجهاً للغالبية من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من صورة هذه الأمة وكرامتها وترابها، جعل أصحاب القرار يميلون – على استحياء – إلى تطعيم برامجهم وخطابهم السياسي بشيء من نور الإسلام وفضاءات صحوته العصرية المباركة ولو شكلاً.

وهذا ما يقتضي من تنظيمات الصحوة – الفاعلة منها على وجه الخصوص – أن تعطي للزمان وللمكان والظروف المتغيرة وجهاً مرناً وحركة إيجابية مناسبة.

إن رسولنا الحبيب ﷺ لم يلبث إلا قليلاً داخل أطر السرية، حتى أتاه الأمر من السماء: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] فانطلق الدعاة غير عابئين بالمعاناة، ولا بضعف قوتهم، ليعلنوا دينهم، ويصدعوا بعقيدتهم، مقتربين من مجتمعهم وأناسهم، يحملون في وجوههم وقلوبهم وجوانحهم سر تلك النقلة العظيمة، التي رفعهم إليها إيمانهم بهذا الإسلام العظيم، الذي لون حياتهم الخاصة والعامة باللون الذهبي الصافي، فالطبع معدٍ، والقدوة تنتقل، إذا كان حملتها منخرطين في حياة شعبهم، ومشاركين في همومه وآلامه وأفراحه من خلال مبادئهم، وعلى ضوء ثوابتهم، مهما تبدلت وتغيرت صور الزمان والمكان أو طبيعة الأحداث أو محركوها، وهم في ذلك غير جامدين في قالب واحد من الحركة والعرض، لأنهم يعرفون أن هذا الجمود يخرجهم من دائرة الفعل وصنع الحدث، إلى دائرة الانفعال، ومن ثم التصرف به بناء على ردود أفعال، لا يعرف المتصرف فيها كيف بدأت وكيف تجري وإلى أين ستنتهي.

إن صحوة الإسلام اليوم هي المتصدي الأهم لحضارة الغرب، التي تريد أن تفرض نفسها على العالم بعدد من المصطلحات الموهمة، مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، تلك المصطلحات التي لا تحظى من الغرب بشيء من المصداقية، في عالم تنفيذها في العوالم الأخرى، خارج تراب الغرب الوطني.

وهي في هذا التصدي لا تريد أن تنبذ كل ما جاء به هذا العالم، بل تريد أن تخرج الإنجازات الغربية العظيمة العلمية منها، والإدارية والتنظيمية، وأسباب الرفاهية، من دائرة الأنانية، التي لا تحدها الأخلاق والقيم، إلى دائرة الرشد والنزاهة والفطرة النقية، واضعة هذا التغيير تحت شعار: ﴿وَلَا

---

(١) الحجر (٩٤).

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1] وتحت شعار (الدين النصيحة)[2].

إن الخطاب الحضاري اليوم يأخذ منحى الوضوح والعلانية في طريقة الطرح، ويأخذ منحى الواقعية والموضوعية والمعاناة اليومية في توجهه نحو الحصول على، القبول العام الجماهيري، ويأخذ منحى﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[3] في طرائق العرض ووسائل التزيين والمجابهة، وفي الأسطر التالية لدينا مزيد من الأسباب والدواعي التي تدعم هذا الاتجاه في النزول إلى الميدان:

١- إن هناك توجهاً غربياً ممهوراً بطابع صهيوني، يحاول إيجاد جبهة عريضة، تجمع بين دولة يهود والعديد من أصحاب القرار العربي السياسي والثقافي الذين طغت على تصرفاتهم وقراراتهم حمى الحفاظ على مواقعهم، واستمرار أحوالهم، والمحافظة على مكانة كلمتهم، كما طغت هذه الحمى على مدى رؤيتهم الأفقية للأمور ومآلاتها، بحيث لم يعودوا يرون إلا مصلحتهم الخاصة، وأنانيتهم الضيفة، وضاعت المصلحة العامة ومصير الأمة في ضبابيات هذا الاتجاه، ويهدف هذا المخطط من جملة ما يهدف، إلى توسيع الشقة بين مشروع النهضة الإسلامي ورجاله وحركته وتنظيمه من جهة، وبين بعض تلك النخب من أصحاب الرأي والقول في هذه الأمة، منذ أكثر من ستة عقود من جهة ثانية، وذلك حتى لا يصل الجميع في لحظة من اللحظات (الإسلاميون والحكام والمثقفون) إلى أرضية مشتركة، تجمع شتات هذه الأمة، وتحتوي متفرقها، وتضع مصيرها على محك مرجعية واحدة ووسائل وبرامج متعددة، يعمل الجميع على إنجاح هذه الرؤية والسير بها في مدارج التقدم والإنقاذ.

٢- إن على الصحوة الإسلامية وفصائلها الفاعلة، أن تقوم لهذا التوجه لصده، وبيان شروره، وما يخبئه من ضرر لهذه الأمة.

٣- ولا يمكن لذلك التصدي أن يتحقق إلا بتضافر جهود عظيمة علنية، تطمئن الجميع إلى أن الحركة الإسلامية لا تزاحم أحداً من أبناء هذه الأمة على موقع من المواقع، إلا بالطرق الشرعية المتاحة، وأنها لا

---

(١) المائدة (٨).

(٢) رواه مسلم وهو جزء من الحديث.

(٣) النحل (١٢٥).

تعادي أحداً منهم، بسبب رأي أو وسيلة أو طريقة يطرحها، وأن هذه الحركة لا تتعامل بطريقة الحزبية العمياء التي لا ترى إلا ما لديها وبين يديها، بل هي تعترف بالصواب إن جاء من عند غيرها فهي تتعامل بطريقة رسولها الكريم ﷺ القائل «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت»[1] .

وأيضاً تتعامل بمنهج ربها جل وعلا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[2] **وبوسيلة: نتعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه، ما دام الجميع – يعملون في حدود المصلحة العامة لأوطان المسلمين مع تعدد البرامج والوسائل.**

قال تعالى:

- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[3].
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[4].
- ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[5].

وقال رسول الله ﷺ:

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[6].

هذه نصوص كريمة تخص المسلمين، وهي تبين أنهم كيان واحد، وصف مرصوص، منسوج بلحمة الإيمان وسدى التقوى والأخوة، ولئن كانت وحدة المسلمين فريضة مؤكدة منذ جاء الإسلام وآمن به الناس، فهي اليوم آكد في الالتزام بها والسعي إليها، فإنه قد اجتمع الكثيرون من أهل الدنيا في هذا العصر على رمي المسلمين عن قوس واحدة، لأنهم يمثلون خندق المواجهة الذي ما يزال يحتوي على الخير لهذا الإنسان.

٤- وقد جمع شيطان هذا العصر كيده، ولم يترك في قوس الحيلة لديه

---

(١) رواه ابن حبان وله شواهد من السنة.
(٢) المائدة (٢).
(٣) الحجرات (١٠).
(٤) الأنبياء (٩٢).
(٥) التوبة (٧١).
(٦) رواه البخاري ومسلم.

منزعاً، إلا وقد هيأه فحضر بخيله ورجله، وشارك أهل الضلال والأهواء أموالهم وأفكارهم وعقائدهم، ووجه قواهم، وقاد نواصيهم، وحط بهم في مواجهة علنية وعاتية مع حملة دين الله وأهل دعوته ومعهم شعوب الإسلام والعرب، فلم يبق أمام الصف المسلم والعربي إلا أن يتمسك بهذا الدين، ويستنجد بهذه العقيدة فيستحضر المسلم من هذا الصف كل الإيمان وكل التطبيق، ويستوعب من هذه الأمة سلاح ثقافتها وتاريخ حياته معها وأسباب وجوده ومواطنته وشراكته في وطنه، ويهتدي بكل ذلك بهدي مخزون عطائها له، ومعين أصالتها التي وضعته في حومة هذه (الأرومة العريقة) التي يتحلى بمسحتها أمام الأمم وبين الشعوب عندما يتنادى كل شعب بما لديه.

ب- ضرورة العلنية

وفي ظننا أنه لن تنجح حركة مهما كبرت بذاتها وعظمت قوتها إلا أن تبرز في العلن، وتعمل للعلن، فقد دار الزمان دورة، لم يعد معها التحرك السري قابلاً للصرف بعمله السوق الدعوية والسياسية والجماهيرية، ولم تعد الحركة السرية قادرة على جمع وتوحيد صفوف المؤمنين من كل البلاد في جبهة واحدة، أمام المد العاتي القادم من حضارة المادة، التي يؤز ضرام وقدها علانية وآليات إعلانية وثقافية تبدو عميقة لناظر سطحي، يتطلع إلى الاستفادة منها بمادة أو ارتفاع قامة.

إن دعوة أو حركة لا يعرفها الناس من خلال الأقوال والأفعال والرجال، ولا تكون لها تجربة في العطاء والمشاركة في حياة الناس اليومية، حيث تقدم لهم في ضوء النهار وأمام الملأ نماذج الإسلام صافية نقية رائدة مسكونة بالهم العام مجلوة بالطهر الذي يعطيها نصاعة الإنسان بفطرته التي فطره الله عليها.

إن دعوة لا تقوم على هذا المنوال لا يمكن أن يتسنى لها ريادة المستقبل في مقابل الحركة المواجهة، التي تتجمع سحب عاصفتها في الأفق المنظور.

فإذا ظهر لنا مدى ضرورة الحركة العلنية الجماهيرية الواضحة العملية، تبدت لنا من خلال ذلك أهمية النقد الذاتي الذي يراجع بين الفينة والفينة خط السير، ويضع له الموازين القسط، فيصحح مواطن الخطأ، ويقوض مواطن الضعف، ويحدد روح العمل الوثاب بفرح الاكتشاف الحق لأدوار الوهن التي كثيراً ما تأتي على الحركات، بسبب: من عدم المراجعة، والاستمرار في السير من خطأ إلى خطأ، وذلك لأن السرية تحول في الغالب دون النقد، ومطارحة الرأي، لأن خط السير والأشخاص القائمين عليه غير معروفين إلا في دائرة

ضيقة من التنظيم نفسه، فكيف سيعرفون مع آرائهم وخطوط سيرهم لدى من هم خارج الحركة؟

وبناء على هذا نفهم قوله تعالى في قرآننا العظيم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١). فهو جل شأنه قريب مجيب، معلن عن نفسه وصفاته وأسمائه وقدراته ووسائله، وأنه سبحانه لا ينفك عن رعايته لعبده، محيط بهمومه ومشاغله وقوته وحركة يومه وطموحه وشغل ساعته وعمره وصلاحه. وإذن فهو جل شأنه موجد حركة كونية عامة شاملة علنية.

وبناء عليه نستطيع أن نبني القول: إن من واجب دعوة الإسلام أن تعمل اليوم في العلن، فتكون قريبة من المدعويين في كل المجالات، تتسم بالجماهيرية والامتداد الأفقي والعمودي وذلك لتكون قريبة وقابلة للصرف في سوق النقد الذاتي وكذلك نقد الغير البناء، الذي يبتغي التصحيح والمراجعة، حيث لا يستمر مع ذلك القرب والقابلية للنقد أي خطأ أو زلل يعمل في الخفاء، فيقود حركة التقدم إلى حيث لا تحمد العقبى. ولن يحقق ذلك كله حركة تعمل في السر، ولا تقبل النقد البناء، لأن تلك الحركة لا تضع في مخططها العملي إلا رعاية أفرادها القليلين، ومن هم أقل من القريبين والله أعلم.

ج- الجماهيرية وحاجاتها:

١- تمهيد: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

إنه حتى لو أقيمت أسوار الليل، وأحيط بخيل النور من كل الاتجاهات، وإنه لو امتد ليل تلك الأسوار وتمادى، وتكاثفت الإحاطة، وأخذت مداها حتى الأفق، وتنفس رجال الصحوة بصعوبة، وتحشرج الهواء في صدورهم حشرجة.

فإن حركة الإسلام العصرية لن تقف عن المضي في منهجها التغييري الذي ينطلق من حب الإنسان كإنسان، وضرورة إخراجه من حومة الضياع (التي لفته بها الحضارة المادية، وجعلته يقع في براثن عقيدة عبادة المادة

---

(١) البقرة (١٨٦).

(٢) آل عمران (١٣٨).

والمصلحة واللذة) إلى عبادة رب العباد والإقلاع به نحو شاطئ الأمان والخلاص، الذي يلتقي به مع الله، ليحظى بنعيم النظر إلى وجهه الكريم، فلا يدخل في بؤس بعده أبداً.

وهذا كلام الله الواضح المبين، يحث خطى هذه الصحوة، كي يكون خطابها عالمياً جماهيرياً موجهاً إلى الناس جميعاً: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كل الناس، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، أبيضهم وأسودهم، عربيهم وأعجميهم، شرقيهم وغربيهم.

وليصل هذا الخطاب إلى الناس، بهدف إخرجهم من دهاليز المتاهات إلى نور الحكمة وبرد اليقين اللذين يضفيان سلاماً وأمناً على الجماهير، فقد حظيت الإنسانية يوماً من الأيام، تحت ظل حضارة الإسلام، بقرون بيضاء ناصعة مزهرة، ذاقت الأمم المختلفة فيها طعم العدل، وعرفت معنى السمو والارتفاع بأشواق الإنسان وسلوكه وتطلعاته، فما بين قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رسول كسرى المشهورة في التاريخ وقصة عدل صلاح الدين الأيوبي مع الفرنج في القدس – مرت قرون من الظلام، الذي كان يسد منافذ الرؤية في عالم الغرب وقرون من النور الذي جعل عيون الغرب، تنظر بشهية لتمثل ذلك النور، الذي غطى مساحة شاسعة من أطراف الحياة العامة في أكثر بلاد العالم القديم.

وأبناء الصحوة الإسلامية اليوم وهم يحلمون باستعادة تلك التجربة بوجه عصري ودود، تحدوهم في تحقيق ذلك الحلم مصلحة الإنسان أينما كان وهداية الجماهير البشرية وإنقاذها في هذه العاجلة، لتكون راشدة، يترسخ في أرجائها معنى السلام والأمن والحب، ولتكون يوم اللقاء – الذي لابد منه – مع رب هذه الأكوان وموجدها، يوم نجاة ونعيم تحظى الجماهير فيه برضى ربها ورؤية وجهه.

إنها ظلمات كثيفة، تلك التي تغطي فطرة إنسان العصر، زينتها مبادئ وفلسفات متعالية متعجرفة، وبهرجتها تقنيات وتسهيلات عصرية، لم يحلم بها الإنسان منذ بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا، وغذتها أحقاد أغلقت قلوب أصحاب الرياسة، من متنفذي العالم وأصحاب المصالح على بقاء هذه الظلمات في حياة من لا يعون معاني الإسلام المشرقة، وعقائده البسيطة العملية، التي تهدف إلى بناء السلام في الفرد والأسرة والمجتمعات، ومن ثم فهي لا تستوعب مدى تعلق الإنسان بهذا الدين وتمسكه له، بعد أن ذاق حلاوة التعامل معه بقلبه وجوارحه وتفاصيل حياته اليومية.

إن المتغيرات في هذا العالم الحاضر تركض ركض الخائفين، ولا تلوي على شيء؛ فهي متسارعة بحيث لا يدرك خطرها، إلا من كان مجداً ذو همة عالية وفهم واسع وأفق عريض وحركة دؤوبة متابعة.

وإن هذه المتغيرات لا تنتظر الفرد الذي لا تحركه الصواعق، ولا تمهل الجماعة أو الحركة أو الهيئة البطيئة المقيمة على (الروتينيات) و(البيروقراطية) الفكرية والحركية، التي لا تملك جهاز دراسات، يعمل ليل نهار، فيقدم لها الرأي المتقدم الذي يسابق حركة المتغيرات فيسبقها، أو يكون في مقدمتها على الأقل، وبذلك تكون الحركة أو الجماعة جاهزة في كل لحظة للوقوف أمام الأحداث لا خلفها، متأخرة في ذيلها.

ولكي تكون صحوة المسلمين ذات حضور وفاعلية وتأثير في سير الأحداث ومسارها، فإنها لابد أن تكون حاضرة مع الجماهير العريضة، تقودها وتنوع حركتها، وتلهب عواطفها، وتلون مسارها، حسبما تقتضيه مبادئ الإسلام، التي تتمثل فيها مصلحة هذه الجماهير، وهذه نقطة تحدٍ عظيمة للصحوة.

٢- فما هي الجماهيرية التي نعنيها يا ترى؟

إذا قرأنا النصوص التالية، يمكننا أن نفهم ما تعني الجماهيرية التي نريد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

وقال جل من قائل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٢).

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ﴾(٤).

---

(١) الحجرات (١٣).
(٢) الأعراف (١٥٨).
(٣) المائدة (٨).
(٤) النساء (٥٨).

وقال أيضاً: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: (الخلق كلهم عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله)[2].

وإذن فالجماهيرية تعني أنها:

أ- رسالة أمن وسلام لكل الناس

فالجماهيرية التي عني بها الإسلام هي خطاب لفظي وعملي ميداني يقول:

إن الخطاب القرآني يتوجه إلى الناس جميعاً، وهو خطاب منسوج من رسالة سلام وأمن إلى كل الناس بلا استثناء، بآلية منظمة تبني أول ما تبني قاعدة العمل المكونة: من الفرد ثم الجماعة، وهم النخبة الصالحة الذين يسعون إلى توسيع قاعدتهم المختارة، لحساب الاقتراب من القاعدة الجماهيرية العريضة.

ب- ورسالة عدل وقسط

ولكي تكون حركة هذه النخبة جماهيرية عريضة قوية متينة، فقد علمنا الله ورسوله كيفية إدارة خطواتها إذ قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾. ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ **فجعل الله تعالى حركة المسلم مضبوطة بالعدل في كل الأحوال، مع القريب ومع البعيد، مع المسلم ومع غير المسلم، في الشدة والرخاء، في المنشط وفي المكره، مع المحب ومع القالي والمبغض.**

ثم قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [3].

---

(١) النساء (١١٤).
(٢) الإمام أبو علي.
(٣) النساء (١١٤).

وقال رسول الله ﷺ: ((يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا)) [1].

ج- ورسالة قرب من الناس

فقد ضبط هذان النصان الآنفان حركة الإسلام وخطابها العملي في الميدان بالتعليمات التي تجعلها قريبة من الناس، ملتصقة بما ينفعهم، مسكونة بهمهم وأوضاعهم وشأن عيشهم، وبكل ما يجعل هذه الحركة عند حسن ظن الجماهير البشرية، وحائزة على ثقتهم، بحيث تفتح هذه الجماهير لحركة الصحوة منافذ قيادها، وتسلس لها أعنتها، وتحيطها بالحماية والقوة التي تحتاجها في عملية التحدي التغييرية التي هي غاية هذه الصحوة وسبب وجودها وحركتها.

٣- ولكن كيف تتحقق للصحوة الإسلامية الجماهيرية؟

لكي يتحقق لحركة الصحوة العصرية أن تكون جماهيرية نظرياً وعملياً، وتتصدى بذلك لعملية التحدي يجب أن تعمل على ثلاثة محاور:

أ. إدراك ماهيتها وأهميتها.
ب. إدراك أبعاد المشروع المناهض وآلياته في العمل والانتشار والسيطرة.
ج. إدراك عناصر المعركة وآليات التغيير وبناء المشروع الحضاري الكامل.

وفيما يلي تفصيل في كل واحد من هذه البنود.

أ. إدراك ماهيتها ومهمتها

ونعني بذلك أن تسأل حركة الصحوة بجميع فصائلها نفسها: من هي؟ وما هي طبيعتها؟ وما هي مهمتها التي شمرت السواعد من أجلها؟

- هل هي حركة أحكام نحكمها على الناس ثم نمضي؟ فنقول هذا مؤمن وذلك كافر أو هذا فاسق، وذلك مرتد، وهذا مستقيم وذلك مداهن منافق، ثم بعد ذلك نبقى في مكاننا السامي، ننتظر مجيء هؤلاء إلينا طائعين خاضعين؟!
- أم هي حركة علمية، تود أن تتعرف على ما في بطون الكتب لتنقلها إلى أذهان وعقول المسلمين وحسب؟
- أم أنها حركة متجهة إلى رواد المساجد ومجتمع المواعظ؟ أم هي حركة اجتماعية خيرية؟ أم ماذا؟

يجب أن تعيَ حركة الصحوة: أنها حركة عطاء وامق مستمر، حركة

---

(١) متفق عليه.

حضارية تغييرية، تبتغي بناء الإنسان كما أراده الله ورسوله، مقبلة على العالم بكل الحب وكل الخير، متدرجة في حركتها من القريب إلى البعيد، ثم الأبعد، حتى تصل كلمة التغيير الحضاري الإسلامي إلى كل الحضر والمدر، وإلى أبعد زاوية في هذا العالم، كما بشر بذلك الصادق المصدوق ﷺ مبتعدة في ذلك عن كل عصبية من الجنس، أو اللون، أو القومية.

إن الإعلان العام الذي جاء في سورة الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إن هو إلا دستور العطاء الحضاري التغييري للخطاب الإسلامي في كل عصر، يبين بجلاء أن هذا الخطاب خطاب إنساني جماهيري، يتضمن الحب للإنسان بما هو إنسان بدون تفرقة، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

ولقد بين الإمام البنا (رحمه الله) صورة ما جاءت لتنشره حركة الإسلام بكلمات راقية سامقة، وكانت مفسراً عبقرياً وشارحاً واضحاً مبيناً لوضع أية حركة إسلامية، تبتغي وجه الله في دعوتها للناس، فقال في رسالته تحت راية القرآن: (كان أن أصغى مسمع الدهر لدعوة رسول الله ﷺ وترددت في فم الزمان آيات قرآنية، وأشرقت شموس الهداية في كل مكان من قلوب أصحابه وأتباعه، وعم الكون نور، ورفرف على الدنيا سلام، وتذوقت الإنسانية حلاوة السعادة بعدالة الحكم، وأمن المحكوم في ظل الرعيل الأول من تلامذة محمد صلوات الله عليه وسلامه).

فالمهمة إذن: أن يصغي المسلمون والناس كافة لكلمة الإسلام، حيث

(١) البقرة (١٣٨).
(٢) الأعراف (١٥٨).

تتردد آيات قرآنية حكيمة، تشرق من خلالها شمس الهداية والسلام والعدل والأمان والسعادة، في المجتمعات البشرية، صافية خالية من كل روح عصبية أو طمع مادي أو روح استعمارية استغلالية أو نَفَسٍ تهديدي يتعالى على احد من أبناء الإنسانية.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾(1).

﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾(2).

وخلاصة القول: إن ماهية حركة الصحوة المعاصرة يجب أن تكون ماهية مبنية على هدي كتاب الله الكريم وخطو رسوله الكريم. ماهية إنسانية مجبولة بحب الإنسان والتوجه إليه في كل بقعة من بقاع هذا العالم، مبتدئة بالقريب فالبعيد والأبعد.

واصلة إليه من خلال مهمة مبنية على خطاب يبتغي سعادة هذا الإنسان ومصلحته وحكم العدل الذي يتشوق إلى العيش في رحابه، موائماً بين شتى خطوط حياته ونفسه وأمنه، وهذا كله يعطي ماهية الحركة أهميتها وضرورتها للبشرية.

ب. وإدراك أبعاد وآليات عمل المشروع الغربي

إن الميزتين اللتين تتميز بهما حركة الإسلام هما:

١- (وعي الذات ومعرفة أبعادها، وما نال تلك الذات من تشوه وانحسار على مدى قرون من الجمود والحرب المضادة الشرسة.
٢- وإدراك ما يحاك للإنسان في كل أنحاء المعمورة، من محاولات وتطبيقات تبتغي طمس معالم فطرته، من خلال إدخاله في منظومة هيكليات وآليات وتأثيرات المشروع الحضاري المادي.

ولقد أدرك الغرب والصهيونية منذ مرحلة مبكرة أبعاد هاتين الميزتين، ومدى فاعليتهما في إقامة صرح حضاري ميداني، مبني على أسس لا تحدها

(١) الحج (٤١).
(٢) القصص (٨٣).

حدود، من الصدق النظري والعملي، يتحلى بهما من اتجه إلى حمل مهمة التغيير لمصلحة الإنسان. ولقد انبثق من ذلك الإدراك المبكر لأبعاد هاتين الميزتين ومدى ما يحدثانه من الفاعلية رعب هائل، سكن قلوب أصحاب المشروع المادي، وذلك عندما راحوا يتصورون ذلك الانسياح السهل والواسع للإسلام في أرجاء العالم القديم، على يد دعاة الإسلام من صحابة رسول الله ﷺ، ففي غضون سنوات قليلة استطاعوا أن ينشروا لواء الهداية الربانية في معظم العالم الذي كان معروفاً في ذلك الزمان، منقذين به الإنسان من ظلامية كان يرزح في عتمتها، وتعتل روحه وإنسانيته في مبادئها وآلياتها وأهدافها التي تتشابك في كثير من عناصرها مع حضارة رأس المال العصرية.

ولقد نتج عن ذلك عند الغربيين مشروع ذو آليات وأدوات هائلة استطاع أن يها يمتد بأذرعه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وشارك هذا البناء الحضاري الناس كل الناس، في أموالهم وعقولهم ومتاجرهم وحركة حياتهم اليومية في أدق تفاصيلها، بحيث أصبح من الصعب فرز عناصر التميز المحلي عن مداخلات العصر الحضاري الغربي في أي شأن من شؤون الحياة اليومية، الفكرية منها أو الاقتصادية أو التربوية أو الاجتماعية.

فمن المدرسة التي اعتمدت الأسلوب الغربي في ترتيباتها الإدارية والفنية والمنهجية، إلى الشارع والعمارة فيه، وطرق إدارته وطريقة وهندسة أبنيته ثم إلى البيت، وغزو المظاهر الحضارية الغربية لفرشه، وطريقة ترتيبه وإدارته، واقتصاد معيشته، إلى بناء الدولة الحديثة، التي أخذ النظام الغربي بتلابيبها، فأصبحت في كل مكان من هذه المعمورة بوابة مشروعة لتسريب (فيروس) تلك الحضارة إلى جميع مناحي الحياة فيها، إلى وسائل الإعلام المقروءة والمرئية التي كانت أحد أهم أسباب تعميم البلاء والابتلاء الذي داهم شعوب العالم، وجعلها تنحاز بذيلية بلهاء إلى جانب حضارة المادة والهيمنة والاستكبار، وكانت أهم وسائل تلك الحضارة الغازية في الوصول إلى أعمق الأعماق وأبعد الأبعاد من النسيج الاجتماعي لكل الشعوب، فبينما هم في واقع الحال يحاولون الخروج من دائرة السيطرة المباشرة لدول تلك الحضارة، يقعون من حيث لا يدرون في حومة مشروعها ومبادئها ومناهجها التنموية والاقتصادية والسياسية، ظانين أنهم يمتلكون قرارهم المستقل في هذا الاتجاه، فإذا هم كمن يقع فجأة في حوام الماء، كلما تحرك أكثر غاص أكثر، حتى يغرق، ويُغرق، فيفقد بالتالي قواه، ويجد نفسه يائساً محاطاً، فيرفع يديه، ويسلم أمره وسط ثلل من المشجعين والحاثين من أبناء القربى، الذين

أغرقهم الغرب بالألقاب والمواقع المتقدمة، ليكونوا طلائع الهزيمة، ورواد الانحياز إليه.

وهكذا قامت الدعوات القومية في بلاد المسلمين (كالطورانية) والقوميات الأخرى فاقدة الاتصال مع الإسلام، وسقطت الخلافة التي كانت تجمع المسلمين ضمن وطن واحد وفكر واحد وعقيدة واحدة، إذ دفعت عن بلاد المسلمين طمع الاقتحام قروناً وحمت حدودهم بسياج صعب الاقتحام، وحصنت عقولهم من الانبهار، بما يزين لهم من أكاذيب النهضة والتقدم، ثم الاستقلال السياسي الموهوم الذي كان في ظاهره الرحمة ومن باطنه العذاب، عذاب الالتحاق والضم، والتفتيت الجغرافي والسياسي والإقليمي، ومن ثم السقوط في براثن المزينين، وفي حوزة سيطرتهم، التي قطعت أوصال التابعين، وأذهبت كل أمل لهم في النهضة.

ومن نفس المنطلق القومي المنبت عن الإسلام جاءت حكومات الانقلابات العسكرية، امتداداً للحكومات التي أقامها الاستعمار الغربي، لوأد كل حركة مخلصة، قامت في سبيل إعادة مسار شعوب المسلمين إلى الطريق السليم الذي يقود الأمة إلى الاستقلال وبناء الذات على أسس دينها القويم، بعيداً عن هيمنة الحضارة الرأسمالية المدمرة. (إن الرأسمالية المستوردة من الغرب تخلف في المجتمعات المختلفة البنيان آثاراً مدمرة) [(١)].

ولقد جيشت تلك الدول والحكومات لبرامجها فلولاً من المتغربين، الذين رضعوا أفكار ومبادئ الغرب الرأسمالية، فلم يعودوا يرون إلا ناره وشراره حافزاً ومتقدماً بالأمة، وقدمت لهؤلاء كل وسائل التسهيل والشهرة والوصول إلى مقدمة الركب، حتى لم يعد المواطن العادي يسمع صوتاً إلا صوتهم، ولا يقرأ إلا ما يكتبون، ولا يحس وجوداً إلا وجودهم، وامتد حضورهم في الشعوب والأمم حتى هذه اللحظات وإن كان الإصغاء لهم قد بدأ يتهاوى.

هذا إلى جانب قيام معظم الحكومات بتعميم مناهج الغرب ووسائل تنميته وتقنيات فكره ومظاهر الحياة اليومية لديه، وإبرازها على أنها التقدم والتحضر والرقي، بينما أظهرت مميزات ومحليات الشعوب على أنها التخلف والتقوقع والقعود بها عن اللحاق بركب الحضارة، وهكذا فقد تغلغلت أسباب المشروع الحضاري الغربي الرأسمالي في كل مسام المجتمعات عامة والإسلامية خاصة بصورة معقدة، يبدو للوهلة الأولى استحالة الفكاك عنها،

---

(١) من كلام للبابا يوحنا بولس الثاني مع النائب البولوني (غاورونيسكي) جريدة تشرين السورية ١٩٩٣/١٠/٤.

أو الخلاص من علائقها. وأصبحت الصورة كما وضعنا في مواجهتها الأستاذ (عيسى النصراوي) إذ قال: (والبديل الإسلامي لا يقف في جزيرة وأعداؤه في جزيرة أخرى وإنما هم في عقر داره وفي قلب داره كذلك مما يفرض عليه أن يصارع في ظل ميزان قوى في غير مصلحته أي يجب أن يخرج من تحت الركام والرماد وأن يدخل في صراع وهو في أحضان الحضارة الغربية، وفي قلب الشرنقة التي نسجتها من حوله دولة ومؤسسات وأنظمة اقتصادية وأنماط حياة، لا يستطيع إلا أن يستخدم عدداً من الأدوات والمؤسسات التي نسجتها الحضارة الغربية، بل حتى الدولة التي سيسيطر عليها هي دولة تلك الحضارة، ولا يستطيع أن يبدأ إلا منها، ومن خلال استخدام مؤسساتها وأجهزتها) [1].

ج. إدراك عناصر المعركة وآليات التغيير

١- أساسيات

من خلال العرض السابق وجدنا أن المشروع الحضاري الإسلامي يصارع المشروع الغازي ليس بعيداً عنه، ولا يتحيز كل منهما في مكان يقيم فيه، وينابذ الآخر من ذلك المكان، إن المشروع الإسلامي يواجه الآخر، من تحت الركام الذي أهاله ذلك الآخر على كل مظاهر الحياة اليومية للإنسان المعاصر، لذا فقد تحتم على أصحاب المشروع الإسلامي أن يفهموا أسرار وآليات تغلغل ذلك المشروع في مسام مجتمعاتنا، إذ بدون هذا الفهم لا نستطيع أن نتعرف على آليات التعامل السليم مع ذلك المشروع الخطير، ولا نستطيع معرفة أسباب هيمنته، ومن ثم إحلال البديل الذي ارتضاه الله للإنسان. ولا أدعي أنني في هذه الدراسة المتواضعة استطيع أن أضع اليد على كل ما هو كائن من آليات، وإنما أستطيع أن أدعي أن كلامي هذا محاولة من المحاولات التي تتجه إلى معرفة السبيل الذي يتلمس البرنامج الأسلم، للوصول بالمشروع الحضاري الإسلامي إلى: ساحة التمكين، واستلام أزمة الأمور، والعودة بالإنسان إلى مكانته التي أرادها الله، حين قال جل من قائل: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[2].

وقبل أن ندخل في تحديد بعض الآليات التي استعملها ويستعملها المشروع الحضاري الغربي في طريقه للهيمنة على إنسان العصر، يجب أن

---

(١) مجلة الإنسان العدد الأول السنة الأولى آذار ١٩٩٠ (بحث حول نقد الحداثة الغربية).
(٢) الإسراء (٧٠).

نوضح بعض الأساسيات في الوصول إلى الفهم الذي نريد:

١. يجب أن نعي أن الصراع القائم بين المشروعين الحضاريين الغربي والإسلامي، ليس صراعاً جديداً إنما هو صراع تاريخي، قائم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، ولقد ظل هذا الصراع قائماً طوال كل تلك القرون، فهو يمثل حركة دائبة مستمرة... وهو ما اعترف به الغربيون على لسان (صموئيل هنتجنتون) مدير معهد (أولن) للدراسات الإستراتيجية إذ قال: (إن الصراع القادم في العالم لن يكون بين المصالح الاقتصادية ولا بين القوميات كما يظن كثيرون ولكنه سيكون صراعاً بين الحضارات، وبوجه أخص بين الحضارتين الغربية والإسلامية اللتين تتصارعان عملياً منذ ثلاثة عشر قرناً) [1]. ولقد أثبتت حركة اليمين المتصهين في أمريكا والغرب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ((سبتمبر)) ٢٠٠١ أن عناصر هذا الصراع كامنة في جوف حضارة الغرب تظهر على السطح في لحظة القلق...!

٢. حينما يتعلق الأمر بدين الإسلام وحضارة المسلمين وقيم ديننا الحنيف، فإن أصحاب المشروع الحضاري الغربي ينسون كل ما يقولونه عن مبادئ إنسانية أو قيم حضارية إنسانية، وأكبر دليل على ذلك: ما حدث ويحدث في البوسنة والهرسك، وموقف الغربيين من قضية تجديف سليمان رشدي بحق الإسلام ونبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والتسليم، ثم موقف الأمريكيين خاصة والغربيين عامة من السودان ودولته وغير ذلك من القضايا الإسلامية المعاصرة والعالقة بلا حل في فلسطين والعراق وأفغانستان.

   ولنستمع إلى الرئيس البوسني يقول: «حينما يتعلق الأمر بالإسلام فإن الغرب على استعداد لأن يخون مبادئه وقيمه التي ينادي بها»[2]. وهذه الحقيقة تنبه أي مسلم كي يكون حذراً، فلا يصدق كل ما يقوله الغربيون عن عدالة موقفهم أو براءتهم تجاه قضايانا.

٣. إن الغزوة الغربية قائمة على مؤسسات وأجهزة، وخطط وبرامج جماعية وفردية، وتقنيات فلسفية متقنة الحبكة والترتيب.

٤. وهذه الغزوة وإن كانت تبدو لحمة واحدة متراصة الخلايا والأجزاء، إلا أنها لا تخلو من عناصر متضاربة، أو متحاربة في بعض الأحيان، مما يجعل فرص الدخول عليها من هذه الثغرات مهيأة وقوية، لمن يحسن

---

(١) فلسطين المسلمة العدد ١١ السنة الحادية عشر تشرين الثاني ١٩٩٣.

(٢) مقارنة الأديان اليهودية- د.أحمد شلبي، ص-١٠٩.

الأخذ بالفرص والاستفادة منها بأقصى تقنية، فأمريكا وأوروبا – وهما العنصران الرئيسان في هجمة الغرب – على ما بينهما من تلاحم وتراص، لهما مطامع متناطحة في كثير من الأحيان، بل ومتحاربة في أحيان أخرى، وبما أن الحضارة الأوروبية قائمة على قاعدتي المصلحة والأنانية فقد تنشأ بين دولها في كثير من الأوقات خلافات وتناقضات في السياسات والبرامج تصل إلى حد الحرب، وما الحرب العالمية الأولى والثانية والحروب الباردة عنا ببعيد.

٥. إن لغة الحوار الهادئ الرصين البعيد عن إثارة المخاوف، والقريب من تطلعات الإنسان وآماله بعالم يسوده العدل والمساواة، وخال من الخوف والجوع والاستكبار هي اللغة التي يمكن أن تنجح الحوار، وتجد لها منافذ في أفئدة الغربيين، ويجب أن لا نغفل في هذا السياق أن يكون صاحب تلك اللغة مستنداً إلى رصيد كبير من الحكمة والقوة التي تجمع مئات الملايين من البشر في مجتمعات الإسلام، خلف المشروع الحضاري الموحد، بكل ما لدى تلك الملايين من خلفيات حضارية، وقوى اقتصادية، ونماذج رائعة من إشعاعات التعامل الإنساني الذي يرعى مبادئ تكريم الإنسان لكونه إنساناً.

٦. يجب أن يكون مفهوماً تماماً، أن الفكر الغربي الغازي يحمل في طياته (فيروس) الفكر التلمودي الصهيوني خصوصاً ما كان منه في العقود الأخيرة، من القرن العشرين وما بعد، ولا أدل على ذلك من تبرئة الفاتيكان لليهود من دم المسيح، ودخول أكثر من ستين مليوناً من الأمريكيين حتى الآن في حومة الإيمان بالخرافة التلمودية القائلة بمعركة (هرمجدون).

ولنقرأ ما قاله وايزمن الصهيوني المعروف في مذكراته تأكيداً لما قلنا: (ما أسباب حماسة الإنكليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أماني اليهود في فلسطين؟ والجواب على ذلك: أن الإنكليز – ولاسيما من كان منهم من المدرسة القديمة – هم أشد الناس تأثراً بالتوراة... لأن الإنجليزي المتدين يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنكليزية في هذه الناحية أكبر المساعدات) [١].

(وفي شهر أيار ١٩٨٢ أصدر الفاتيكان وثيقة حول القضية الفلسطينية والكيان الصهيوني جاء فيها: (إن تاريخ إسرائيل هو تاريخ متواصل، وإن انتشار إسرائيل في الأرض شهادة تاريخية بطولية لثقتها بالرب، وهي تحتفظ

---

(١) من مجلة رسالة الجهاد الليبية عدد٦٦ أيار ١٩٨٨، ص-٣٤.

دائمـاً فـي قلبهـا بـذكرى ارض الأحـرار وأن وجـود الدولـة الإسـرائيلية أمـر تاريخي، وهو علامة للتفسير في اتجاه واضح للرب) [1].

وتضيف صاحبة كتاب (النبوءة والسياسة) (غريس هالسل) الأمريكية:

(ولدت في مدينة (ليبوك) من أب وأم مسيحيين، وتربيت وترعرعت على الإيمان بالديانـة المسيحية، إننـا نؤمن كمسيحيين أن تـاريخ الإنسـانية سوف ينتهـي بمعركـة تـدعى (هرمجـدون). وبصـورة عامـة يـؤمن المسـيحيون فـي مدينتي أيضاً بأن عمر الكون هو ٦ آلاف سنة وأن مريم أم عيسى عذراء وأن اليهود هم شعب الله المختار وأن الله أعطى الأرض المقدسة إلى شعبه المختار اليهود) [2].

وتقول أيضاً: (استقصاء عام ١٩٨٤ الذي أجرته مؤسسة (باتكيلوفيتش) أظهـر أن ٣٩% مـن الشـعب الأمريكـي يقولـون: إنـه عنـدما يتحـدث الكتـاب المقدس عن تدمير الأرض بالنار فإن ذلك يعنـي أننـا نحـن أنفسـنا سوف نـدمر الأرض (هرمجدون) نووية)[3].

إن إيرادنا لهذا الزخم التلمودي الذي يسكن فكر الغربيين يـأتي مـن أجل أن نعي أبعاد المعركـة التـي يخوضـها مشـروعنا الحضـاري العربـي الإسلامي، وليكون في البال أن أي تنازل أمام يهود مهما كان صـغيراً هو معول هدم فـي البناء العام لنهضة هذه الأمة والحفاظ على أرضها وتاريخها وحضارتها.

٧. إن الجهل الذي يتسم به الغربي عامة والأمريكـي خاصـة بعالمينـا العربـي والإسلامي يحدث فراغاً فكرياً لدى الإنسان الغربي، يعمل على محورين: الأول يسـهل عملية حشو العقل الغربي بأية معلومـة مهمـا كانـت مغرضـة عن هـذين العـالمين، والثـاني يـؤدي إلـى تأييـد أي تصـرف مشـين تجـاه هذين العالمين من قبل القوى المسيطرة والمهيمنة على العالم الغربي.

ولنقرأ الفقرة التاليـة مـن مقـال الأسـتاذ فهمـي هويـدي ونتـدبرها: (حـين أفاض أحد المتحدثين العرب، في محاولـة لإثبـات مـدى جهـل الشـعب الأمريكـي بالعالم العربي والإسلامي سمعت أمريكياً يقول لجاره بصوت ضـاحك: صـاحبنا لا يعرف أن الأمـريكيين يجهلـون كـل شـيء عن أي شـيء آخـر ولـيس العـرب والمسلمين وحدهم) [4].

---

(١) كتاب النبوءة والسياسة- غريسهال، ص-١٩

(٢) المرجع السابق ص-٢٩.

(٣) المرجع السابق.

(٤) مـن مقالـة الأسـتاذ فهمـي هويـدي منشـورة فـي جريـدة الأهـرام ٩٣/١٠/٥ بعنـوان (حـوار

ثم أضاف الأستاذ هويدي: (في الدراسة المقدمة عن العرب والمسلمين في ضمن الكتب المدرسية الأمريكية أعدها الدكتور (هوبرت بورمان) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة كارولينا الشمالية) قال الرجل: إن دراسات عدة أجريت حول الموضوع انتهت إلى ما يلي:

الانطباع الذي تؤكده مختلف الكتب هو أن العالم العربي بلاد صحراوية جافة، ليس فيها سوى النخيل والجمال، والصور الفوتوغرافية المبثوثة في تلك الكتب – وهي مزورة مفتعلة – تعطي ذلك الانطباع على الدوام، وإزاء ذلك فإن سكان تلك البلاد يُقَدّمون دائماً باعتبارهم فلاحين بدائيين يسكنون مدناً وقرى بائسة، بالمقابل فإن إسرائيل تقدم في الكتب باعتبارها واحة الخضرة والبلد الزاهر المتقدم.

الإسلام مقرون بالعنف، والمسلمون أشخاص غامضون، ذوو هيئة منفرة ومريبة، والذين يعتنقون الدين من غير المسلمين يدخلونه بالقهر والسيف، وفي واحد من تلك الكتب إشارة إلى أن الإسلام بدأ في مخيلة سائق للجمل من مكة اسمه محمد، والقرآن من تأليفه، وما جاء به ليس أكثر من أساطير) [١].

إن تبني الإنسان الغربي بعامة لهذه الأفكار الغريبة والظالمة بسبب جهله بالعالم العربي والإسلامي، وحشوه بالمعلومات الخاطئة عن طريق الآلة الإعلامية الهائلة التأثير في الغرب، يجعل هذا الإنسان مهيأ لقبول أي شيء يحدث في هذين العالمين مهما كان كارثياً، كما أنه يجعل هذا الإنسان مغيباً عن فهم ما يدور من سياسات في المنطقة، يحيكها المتنفذون في الغرب، رغم أن كثيراً منها يأتي في غير مصلحة الشعوب الغربية بصورة عامة، ومن هنا يفهم سر سكوت الغربيين المطبق – ما عدا بعض الأصوات هنا وهناك التي تضيع في صخب الضجيج – عن سياسات زعمائهم وقادتهم المغرضة المنحازة لصالح أعداء الشعوب العربية الإسلامية، مع أن مصلحة الغرب بعامة تقضي بالتفاهم والحوار والتنسيق مع أبناء هذه الشعوب.

٢- نتحدث عن ثلاثة أمور:

ولندخل الآن إلى صلب الموضوع الذي ندير الحديث حوله، وهو: فهم آليات عمل المشروع الحضاري الغربي وسوف نتحدث فيه عن ثلاثة

سالزبورج).

(١) من مقالة الأستاذ فهمي هويدي منشورة في جريدة الأهرام ٩٣/١٠/٥ بعنوان (حوار سالزبورج).

مواضيع:

أولاً: معالم

ثانياً: أرضيات وخلفيات

ثالثاً: التطبيق الميداني

أولاً: معالم

((قد يعدُّ البعض أن المصائد المادية للمجتمع الغربي التي يُصَدِّرها إلى العالم الإسلامي: (التلفزيون، الوجبات الجاهزة والسريعة، الأدوات الإلكترونية، وكل المصنوعات التي نستخدمها في حياتنا اليومية) هي أدوات تحديثية وحسب، أو حيادية التأثير والمتابعة، كلنا نقع في مصيدة الغرور البغيض إذا ما نقلنا الحداثة إلى مجتمعات أخرى مع صيرورتها أكثر شبهاً بنا، والحقيقة هي أن نموذجنا في المادية بإمكانه أن يكون مسيئاً للمسلم الملتزم – ولا أقصد فقط المتطرفين منهم) [(١)].

إن أدوات وآليات فعل المشروع الحضاري الغربي في المجتمعات عامة والمجتمع الإسلامي خاصة مصائد مادية فعلية كما عدّها الأمير تشارلز تماماً في الاقتباس الآنف. إن الغربيين عندما يصدرون إلى العالم الإسلامي تلك الأدوات المادية إلينا لا يصدرونها هكذا جمادات بعيدة عن اختراق حجب النفس والعقل والسلوك الإنساني لدى الفرد العربي المسلم. إنها تفعل فعلها بأهداف مرسومة أو غير مرسومة – وبدون الدخول – في النوايا نستطيع القول: إن الانبهار بمنتجات ذلك المشروع الغربي هو أول دفعة على الحساب الطويل العريض المعقد، الذي يبقى قيد الاستحقاق، على طول خط ذلك الانبهار، إذ يخترق دفاعات النفوس، ويلعب بخياراتها، التي تشكل بالنسبة للإنسان مسالك النجاة إن هو استطاع أن يبرز هويته مقابل الهوية القادمة المقتحمة بإصرار وتصميم حثيثين قويين، كما عبر عن ذلك الأمير تشارلز آنفاً، إلا أن تلك الدفعة إن صادفت جُدراً متصدعة متخلخلة – وهذا ما هو واقع – فإن كل المعوقات تنهار، وتبدأ الاستحقاقات التالية تفرض طابعها على حياة المبهورين، سلوكاً حياتياً ومعيشياً واقتصادياً وسياسياً وأخيراً فكرياً وعقدياً، وهو آخر المطاف وغاية المراد من الغزو، إذ يتحول عندئذٍ إلى طامة

---

(١) الأمير تشارلز في إحدى خطبة المنشورة في المواقع الإلكترونية وفي الصحافة البريطانية منذ سنوات.

كبرى، تنهي كل شيء بل كل وجود.. ومن هنا كانت الأهمية القصوى لمعرفة أدوات وآليات المشروع الغربي من قبل الصحوة الإسلامية، وذلك كي لا تعمل في جهالة، تجعلها تتخبط أمام ما تراه من فاعلية كبيرة له في مجتمعاتنا. وقبل أن نبدأ باستعراض أدوات المشروع الحضاري الغربي يجب أن نتعرض لخلفياته وأرضياته التي أقام بناءه فوقها.

ثانياً: أرضيات وخلفيات

لم ينطلق المشروع الحضاري الغربي في طريقه إلى فرض نفسه على كل مظاهر الحياة لدى الآخر من فراغ، ولا هو أطلق أدواته هكذا مصادفة وبشكل عابر، بل إن ذلك الانطلاق كان مرتكزاً إلى خلفيات وأرضيات دعته إلى ابتداع أقصى الإمكان في سبيل الوصول إلى رؤية ذاته تتحقق وتخترق أسوار الآخرين، ليتحولوا إلى أتباع وذيول متعلقة بهوامشه ومظاهره وحسب.

فما هي تلك الخلفيات والأرضيات التي أسس عليها المشروع الغربي بنيانه؟

من خلال الاستقراء العلمي والتاريخي والميداني يمكننا إثبات الخلفيات التالية:

أ- الإرث التاريخي:

إن حالة الصراع التاريخي بين المشروعين الحضاريين الإسلامي والغربي أمر ثابت بالوقائع الأكيدة ولقد ولدت حالة الصدام هذه لدى الطرف الغربي حالة من العصبية العدائية المقيتة تجاه كل ما هو عربي وإسلامي، بسبب النظرة الأحادية العين والزاوية إلى حضارة العرب والمسلمين من ناحية، وبسبب التحدي الروحي والعلمي الذي أطلقت له حضارة المسلمين العنان، حتى أنه استطاع في لحظات تاريخية أن يدق أبواب أوروبا المادية الصلدة – التي انتفشت فيها مادية الرومان فوق كل الصعد، ومنها صعيد الدين والروح، إذ تفشى لدى الأوساط العلمية والفلسفية فيها المنطق الأرسطي النظري المجرد إلى درجة ذيوع ذلك المثل المنقول عنهم: ((جدل بيزنطي)).

وفي حين راحت حضارة المسلمين تنشر أجنحتها الروحية والإنسانية لإنقاذ البشر من العبودية في شتى مظاهرها فوق أديم العالم القديم، بعيدة عن روح الأثرة والعصبية واستغلال الأرض المفتوحة لمصلحة الفاتحين، راحت

فـي المقابـل حضـارة الغربيين تقـاوم هذا الجديـد، بـروح مـن الأنانيـة الضـيقة والأثرة النفسـية القاتلـة اللتين تبعثـان روح المغالبـة ولـو بالبـاطل، بعيداً عن الاعتراف بالآخر، وأنه قد يحمل الخير للجميع. ومن خلال هـاتين النظريتين المتباينتين أخذت تتجذر معالم صراع بينهمـا، امتد مع الزمن، بامتداد مبـادئ كل منهما وتأصلها في واقع حياة التابعين لهما، وخلفت تلك المعـالم فـي ذاكـرة الشـعوب ذكريـات مـرة أليمـة، كانـت فيهـا حضـارة المسلمين الرابحـة إنسـانياً ومعنوياً، بينما ظلت حضارة الغرب تراوح في طيـات المـادة الخاسرة إنسـانياً، مخلفة ندوباً عميقة شوهاء في صورة المسيرة الإنسـانية، بـرزت معالمهـا فـي الحروب الصليبية، ومحـاكم التفتيش، وإبـادة الهنـود الحمـر، وطريقـة التعامـل مع البلدان المستعمرة، وأخيراً في فلسطين والبوسنة والهرسك. ومن قبـل فـي قيام حربين عالميتين دمرتا الأخضر واليابس خلال ثلاثين عاماً.

ولقد شكل هذا الإرث التاريخي مـن العداء لحضـارة المسلمين عبئـاً ثقيلاً داخل نفس الغربي، كان يدفعه دائماً إلى افتعال الهجوم الفارغ من أي معنى إلا معنـى العصـبية والعنصـرية وإنكـار الآخـر وحـب الهيمنـة عليـه وسـلبه كـل ممتلكاتـه. فهـي إذن حالـة نفسـية مرضـية، غيـر مبنيـة علـى منطـق علمـي موضوعي، يدفعها إلى تحقيق الذات كم هائل من الغرور، إلـى جانـب كم هائـل من المعلومات الخاطئة المتراكمة عبر القرون، دون محاولـة جديـة للتمحيص والفهم أو للتحاور والتفاهم.

ب- الخوف من الاندثار

وأسباب هذا الخوف عديدة:

(١) الذاكرة التاريخية التي قمنا بشرح جانب منها في المقطع السـابق، فقد ظل الغربيون متخوفين مـن انطلاقـة جديدة للإسلام تـذكرهم بتلك التـي كانت في القرن السابع الميلادي، حيث أنقذ الإسلام كثيراً من الممالـك التي هيمنوا عليها وأكلوا خيراتها، كما تـذكرهم بتلـك الانتفاضـات التـي أرعبـتهم وأجلـتهم عـن أرض المسـلمين بعـد أن اسـتعمروها عقـوداً طويلة من الزمان في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبنـوا رفاهيـة شعوبهم على حساب الثروات التي نهبوها من تلك البلـدان. وممـا يزيـد في فزعهم وخوفهم تذكرهم أن قـادة تلـك الانتفاضـات ضد استعمارهم كـانوا مـن الإسـلاميين الملتـزمين بـدينهم؛ فمـن الخطـابي فـي أقصـى المغرب إلـى حركـة جنـاح وحزب ماشومي الإسلامي الأندونيسـي فـي أقصى المشرق وما بينهما القسام، والجزائري، وابن بـاديس والحركـة

المهديـة فـي السـودان ومجاهـدي قنـاة السـويس وعمـر المختـار والسنوسية في ليبيا والحركات الصوفية في أواسط أفريقيا..

(٢) عدم معرفة المسلمين معرفة حقيقية فرغم الدراسات الكثيرة الواسعة عـن واقـع المسـلمين وحركـاتهم وتحركـاتهم فـإن الغـربيين مـازالوا يتخبطـون فـي معرفـة الآخـر الإسـلامي الـذي رسـموا لـه صـورة (كاريكاتوريـة) أسسـت علـى مجموعـة مـن المعلومـات الاستشـراقية والتبشـيرية الاسـتعمارية المغرضـة، التـي تتضـمن قلـيلاً مـن الصـواب وكثيـراً مـن الأخطـاء والمفارقـات، مهـدت لقبولهـا ورسـوخها عوامـل نفسـية واجتماعيـة وتاريخيـة كثيـرة، جعلـت مـن عمليـة تمحيصـها وغربلتها عملية صعبة بل شبه مستحيلة، وجاء المشروع الصهيوني ليثبت تلك الصورة، ويعمل على إبرازها وزيادة شوهتها، ليستطيع من خلال ذلك أن ينقل خطواته فوق سطح الأحداث خلال القرن العشرين.

وبناء على هذا كله فقد رُسِمت للمسلم صورةُ المعادي للتقدم، المصادم للغرب المتحضر، الكاره لكل مـا هو أوروبي، المتوحش فـي عدائـه، المتخلـف فـي فكـره وعقائـده، العدو للمـرأة والديمقراطيـة، المنتهـك لحقـوق الإنسـان، الشـهواني النزعة والسلوك.. إلـخ الصورة المنوعة بإتقان من أجل تخويـف الغربيين من الإسلام وأهلـه، وجعلهم دائماً في حيز الأعداء الذين يحـاولون القضاء على حضارة الغرب المتقدمة!.

وعلى كل حال، فإن المسلمين يفهمون هذا الذي ذهب إليه الغرب في خوفه منهم وتخوفه من اندثار حضارته بسببهم. وذلك من خلال معادلة الصراع بين الحضارتين، تلك المعادلة الدائمة التي وصفها الله تعالى بقوله في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

(٣) افتقـادهم للنظرة العادلـة في حكمهم تجاه مـا يتصرفه أو يريـده الآخـر غير الغربي، وبصورة خاصة (الإسلامي). وهذا مـا يضعهم فـي حومـة الخوف الدائم من إرادته ومشروعية هذه الإرادة.

فـالآخر إن أراد الاسـتقلال بقـراره وتوجهـه يقولـون: إنـه يريـد دمارنـا

---

(١) هود (١١٨).

واندثار حضارتنا، والإسلامي إن قام بالدفاع عن نفسه تجاه الاعتداءات عليه والظلم الفاضح الذي يوقعه رجال الغرب وزبانيتهم به قيل إن هذا الدفاع المشروع موسوم بالإرهاب ضد المشروع الغربي. فكيف يتصرف الإسلامي إذن تجاه ظالمه الذي قد يكون قد سرق كل شيء منه، فكره، وأرضه، وأمنه؟!.

ونزيد في الحجة، لنقول للغربي لماذا يكون قيام الأمريكيين بالثورة على الإنكليز لطردهم من الأرض الأمريكية التي اغتصبوها مشروعاً وثورة، بينما الفلسطيني يوصم نضاله ضد الصهيونيين الذين اغتصبوا كل شيء منه الأرض والأمن والحياة. بالإرهاب والعداء للحضارة والقيم وحقوق الإنسان؟

وتتجلى هذه النظرة الغربية الفاقدة للعدالة أكثر ما تتجلى في قضية امتلاك السلاح النووي.. فهذا الامتلاك يكون لدمارهم وتخريب حضارتهم إن كان بيد إسلامية مثل باكستان والعراق، ويسكت عنه تماماً إن كان بيد يهود وأمثالهم، بل إنهم ليمدونه بالنماء والعون والتسديد.. فتأمل!!

إن ظاهرة الظلم للآخر، وعدم العدالة في الحكم على ما يقدمه للحضارة، أو ما يقوم به من دفاع عن نفسه، هي نفسها التي أدت بالغربي إلى المبالغة في أحداث تاريخية وعصرية لمجرد أنها من فعله، ولنقرأ مع روجيه جارودي مقطعاً يبين فيه رأيه وهو غربي في هذه الظاهرة، من خلال إبرازه مبالغة الغرب في نتائج معركتين هما: (ماراتون) بين الفرس واليونان، (وبواتييه) بين جيش المسلمين وجيش (شارل مارتل).

«والحال أن بواتييه قد تحولت كما جرى بالنسبة لماراتون إلى أسورة بطولية، وعليه: إن صفحات كثيرة من تاريخنا يجب أن تعاد كتابتها، لأنها أمليت بروح استعمارية، أشد ما تكون تشيعاً، وأبعد ما تكون في الدناءة، إنها خرافات حان الوقت لتبديدها» [1]. إنها فعلاً خرافات قامت على ركام هائل من إنكار الآخر، ونظرة مركزية للحضارة، تنطلق من محور واحد، يدور حوله كل الآخرين، وينطلقون من مرتكزاته وقواعده.

ج- حب الهيمنة والسيطرة

إن الفردية التي تتسم بها حضارة الغرب، أنتجت أنانية مريضة قاتلة بالنسبة للآخرين، إذ دفعت الغربيين إلى مراعاة مصالحهم ورفاهيتهم، دون حساب لمصالح الآخرين وحقوقهم، وبناء على هذا المبدأ نستطيع فهم: لماذا كانت الحروب الصليبية؟ ولماذا حملت شعار الصليب؟ بينما هي في الحقيقة

---

(١) من أجل حوار بين الحضارات- روجيه غارودي، ترجمة د. ذوقان قرقوط، ص (٨٥-٨٦).

كانت غارقة في روح الهيمنة والسيطرة المنطلقة من حقد أسود على المسلمين، لا تبرره إلا تلك الروح المقيتة من الأنانية ومركزية الفهم للإنسان وحضارته. كما أن هذا الباب نفسه يفسر لماذا كان الاستعمار وكيف كان؟

ولقد لخص نعوم تشومسكي الليبرالي الأمريكي هذه المقولة التي تقدمنا بها بما يلي: (إن جوهر فلسفة الديمقراطية الرأسمالية يمكن تلخيصه بهذه الجملة:

(ما لم يجر إرضاء الأغنياء والنافذين فإن الآخرين سوف يعانون) ومن أجل أن يصبح الإذعان عادة يمكن الاعتماد عليها يقتضي زرعها عميقاً في كل ميدان.. ولإنجاز هذه الصياغة الامتثالية للجمهور حرصت الولايات المتحدة على الإمساك بجهازي الشرطة والجيش في بلدان أمريكا اللاتينية، لضمان ألا يتصرف الشعب وفقاً لأفكار غير مقبولة أمريكياً طبعاً).

وفي الشرق الأوسط اعتمدت واشنطن (وهي زعيمة الغرب الرأسمالي) وسيلة إشاعة الاضطرابات والإرهاب وإعداد الانقلابات لسد الطرق على القوى الصاعدة) [١].

إن سياسة حب الهيمنة والسيطرة من قبل الغرب تجاه الآخر حضارياً تتلخص أيضاً بمقولة روجيه غارودي التي جاءت بخط مترجم كتاب المفكر الفرنسي (من أجل حوار بين الحضارات).

(ذلك أن إحدى المصائب الكبرى في التاريخ المكتوب هي أنه من كتابة المنتصرين، الذين يريدون دوماً أن يثبتوا أن هيمنتهم كانت ضرورة تاريخية، أي أنها بالضرورة نتيجة تفوق حضارتهم وثقافتهم، وهذا هو شان معظم مؤرخي أوروبا)[٢].

د- استغلال خيرات وثروات الشعوب

وهذا الباب من الأرضيات التي قام عليها المشروع الحضاري الغربي نابع من الباب الذي قبله. وهو حب الهيمنة والسيطرة النابعتين من الفردية والأنانية. إذ تُبنى النظرة إلى العالم من مركزية الغرب، وأنه لا حضارة إلا حضارته، ولا إنسان إلا إنسانه، وأن كل الآخرين برابرة وهمل، واجبهم تقديم الخدمة للمشروع الغربي والسهر على رفاهية إنسانه.

ولا يحتاج هذا الاستغلال الرهيب من قبل الغرب لكل ثروات البلاد المستعمرة إلى كبير برهان.. فالدنيا كلها تعلم كيف وعلى ماذا قامت رفاهية ورخاء الإنسان الغربي، ويكفي أن نقول: أن هولندا المستعمرة نقلت حتى

---

(١) إعاقة الديمقراطية- نعوم تشومسكي، صفحة الغلاف الأخير.

(٢) من أجل حوارين الحضارات- روجيه غارودي، ص-٨.

تراب (سورينام) المستعمرة من قبلها إلى هولندا من أجل زيادة رقعة الأرض الهولندية على حساب بحر الشمال. وحدث ولا حرج عن النهب البريطاني للمستعمرات العربية والإسلامية، ثم النهب الفرنسي للشمال الأفريقي وسوريا ولبنان، ويأتي النهب الأمريكي لثروات النفط العربية على رأس القائمة الطويلة لعمليات النهب المستمرة التي أثارت أمريكا من أجلها شبه حرب عالمية عام ١٩٩١ في الخليج. ولقد توج الغربيون آلية نهب الثروات بموضوع العولمة الذي يريدون منه إفساح المجال بحرية أمام منتجاتهم، واكتساح أسواق العالم، وجمع ثروات شعوب الأرض عن طريق التسوق الحرّ، الذي تكتسح منتجاتهم – الفائضة عن حاجة الناس – جيوب هذه الشعوب، مع أن هذه الشعوب غير محتاجة لكل هذا الكم من كثافة الإنتاج.. لكنها ثقافة الاستهلاك، التي بثتها فيهم خلفيات المنتجات وما تحتويه من صيغ حياة وسبل عيش ونظرات فكر وحراك يومي..

ثالثاً: تطبيقات ميدانية: وفي تفاصيل هذا البحث نقول:

أ-تقديم

وحتى لا نمضي في مسلسل العموميات بالنسبة للمشروع الحضاري الغربي، لابد لنا من أن نبني فهمنا لأدواته ومعرفتنا لها على ركائز، لا تتطرق إليها لغة الخطب اللاهبة أو النظرات العابرة المختزلة للموضوع بكم كبير من الوهم، وقدر كبير من تسطيح القضية وتلخيصها بشكل مبسط، وهي القضية المعقدة، ذات الأبعاد التاريخية والعقدية والمنهجية والسياسية والاجتماعية وحتى الأدبية.

لقد جابت جحافل الحضارة الإسلامية العالم القديم، من مشرقه إلى مغربه، واستطاعت أن تنقل إلى هذا العالم مبادئ المشروع الحضاري الإسلامي وأنواره، إلا أن هذه المبادئ وقفت في لحظة من اللحظات عند بوابات الشاطئ الغربي، تحاول استيعابه ضمن موجة الخير، التي حملها المسلمون إلى كثير من أصقاع الأرض، لكنها لم تستطع أن تخترق الأسوار العالية من التعالي والغرور، التي أغلق بها الغرب بوابات التلقي عنده، واستمرت تناوشه عند بواباته الشرقية، في بخارى وسمرقند، حيث الإمارات الروسية الغربية، وعند بواباته الغربية، حيث فرنسا (الغال) وألمانيا القبائل الجرمانية.. ولما أن تحركت جحافل المسلمين، وسيطرت على عاصمة مشرق الغرب (القسطنطينية) وذلك بزعامة محمد الفاتح (رحمه الله) كانت حركة الإسلام الثقافية والإنسانية قد فقد حاملوها كثيراً من روحانياتها وأساساتها،

تحت وطأة الزمن أولاً، ثم بفعل الخلل الكبير الذي انتاب عمليات تطبيقه وتنفيذه ميدانياً من قبل أتباعه ثانياً، خصوصاً في مجالات الحكم والعدل والتقدم العلمي والتقني.

وبناءً على ما تقدم فقد ظلّ الغرب ومشروعه الحضاري المناوئ والند للمشروع الحضاري الإسلامي منذ نشأته وحتى اللحظة، رغم كل ما كان ينخره من فساد روماني وبيزنطي معروف، ورغم كل ما كان يجتاحه من إباحيات وحروب ثنائية وجماعية (الحرب الفرنسية الإنكليزية)، (الروسية الأوروبية)، (نابليون وأوروبا)، (الحرب العالمية الأولى والثانية).

ورغم ما كان ينتاب دوله من صعود وهبوط أو غياب (هبوط الإمبراطورية البريطانية، وهبوط الإمبراطورية الفرنسية، صعود الولايات المتحدة، غياب الاتحاد السوفياتي، وغياب الإمبراطورية البرتغالية).

إن المسلم يؤمن بأنه ما من أمر يحدث أو يسكن في هذا الكون إلا بأمر الله ولحكمة يريدها، ولهذا وبناء عليه فإننا نؤكد: ـ أن بقاء المشروع الحضاري الغربي قائماً حتى اليوم في مقابل المشروع الحضاري الإسلامي يحكمه بقاء سنة التدافع التي أقام الله عليها قوانين العلاقة بين بني البشر. وعليه فإننا إذا أردنا لمشروعنا الحضاري الإسلامي أن يأخذ مكانه في هداية الناس وقيادة البشرية يجب علينا أن نفهم أدوات المشروع المقابل وآليات عمله في مجتمعاتنا وفي المجتمعات الأخرى، الفهم الذي يؤهلنا للتعامل معه بالطريقة التي تؤهلنا للتمكن وإدخال الهداية في قلب الآخر، نابذين من لغة خطابنا الكلمات العابرة السريعة، غير المرتكزة على علم ومعرفة وفهم، وذلك كي لا تذوب تلك الكلمات وتتلاشى في حر الواقع ومعطياته ومجرياته.

ومن هذه الكلمات على سبيل المثال لا الحصر تلك التي تقول بدون تمهل: سوف يسقط الغرب نهائياً نتيجة الفساد المستشري في مجتمعاته، والتي تقول أيضاً إن الغرب ليس فيه أي إيجابية، بل هو لوحة ملطخة بعار المخدرات والإيدز والجنس وأولاد الحرام... وهو آيل إلى الانهيار لا محالة، وسنكون نحن الوارثين، حتى بدون أن نعي الأرضية التي ستقوم عليها تلك الوراثة، وبدون أن نعرف الآلية التي نعمل بها، لنستطيع أن ننقل الإسلام إلى الغرب باللغة الخارقة، لتستنير مجتمعاته بنور الهداية الربانية.

وكل تلك النظرات والفكر تصدر عن البعض منا، في حين أن التاريخ يطالعهم في ثناياه بوقائع تصدم استنتاجاتهم، ليقول لهم: إن روما التي انهزمت أمام الإسلام في بلدان المشرق العربي، وعادت إلى بلدها ومنشئها، بقيت وبقي الغرب بعدها مناهضين للإسلام، رغم ما كان يعتري مجتمعاتهم

من فساد، قد يفوق ما في الغرب من فساد اليوم.

وليس هذا وحسب، بل إننا رأينا بأم أعيننا كيف أن ذهاب الاتحاد السوفياتي لم يقض على المشروع الحضاري الغربي في روسيا، بل رأينا أن روسيا الكيان الذي قام على أنقاض الاتحاد السوفياتي والمعترف بها عالمياً كدولة كبرى انحازت بشكل واضح إلى صف المشروع الحضاري الغربي، ودعمت مواقعه فوق أرضها قولاً وعملاً في يوغوسلافيا وفي فلسطين، كما أننا نرى الشيوعية التي هي الشق الثاني من المشروع الغربي التي غابت عن السطح في روسيا، ما زال جمرها يبعث ببعض ضرره هنا وهناك، في روسيا نفسها، وفي بلدان أوروبا الشرقية وفي الصين وفيتنام وكوريا وغيرها من بلدان العالم.

إن السنن التي أسس الله سبحانه وتعالى عليها أبنية هذا العالم تقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] .

كما أنها تقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

إن الخطاب العاطفي السريع المسطح في الحكم على قوة المشروع الحضاري الغربي المناهض خطاب يغفل عن هذه السنن الربانية في أبنية الصراع البشري، ويجعل أصحابه يعتسفون الحكم بانهيار الغرب، لمجرد رؤيتهم بعض مظاهر الفساد في أرجائه، دون النظر إلى الإيجابيات التي قد تكون سبباً في بقائه واستمراره بل وهيمنته.

نعم إنه قد يغيب عضو من أعضاء هذا المشروع الغربي، ويحضر آخر، وقد يهوي غيره من القمة ليصعد عضو ثان، فيحل مكانه، ولكن المشروع ككل مستمر في سيره وتحديه، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا

(١) هود (١١٨، ١١٩).
(٢) البقرة (٢٥١).

كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[1].

إن الركون إلى مثل تلك المقولات المتسرعة يغفل إغفالاً جلياً حقائق التاريخ الماثل أمام كل الناظرين فيه، ألم يستمر مشروع الغرب الحضاري في البقاء مقابل مشروعنا زهاء خمسة عشر قرناً من الزمان حتى الآن، رغم ما اختزنه ذلك المشروع من فساد أخلاقي واجتماعي وسياسي؟ ورغم ما اعتراه من انحراف عن الفطرة الربانية والإنسانية الراشدة، سواء كان ذلك في زمن روما أو في عهود بيزنطة أو في العصر الحديث.

إن بعض الأماني التي تراود خيال الكثيرين لن تكون واقعية، إلا إذا دعمها في الميدان كثير من العمل والجهد والعرق والصبر وعميق الفهم والوعي بسنن الله في التغيير والإتباع الدقيق لمقتضيات الإيمان الراسخ، وسلوك سبيل الوسائل الصحيحة، وتحري الوقت المناسب، والظرف الملائم، وكل ذلك من خلال التضحية الغالية والإيثار العالي والخطاب العالمي المتوازن العادل المفهوم من الجميع.

ب- أدوات المشروع الحضاري الغربي

إن هذا البحث هو محاولة للفهم، لا تدعي أنها ستحيط بكل شيء، أو تدعي أنها ستحصر التفاصيل فيما تنطق به، لا بل هي مدخل يمكن الإضافة إليه، أو التعليق على تفاصيله وإبداء الملاحظات حول صلبه.

وفي هذا البحث لا بد لنا بداية أن نقدم تعداداً لأدوات المشروع الغربي التي استطعنا التعرف عليها والتي هي وسائله أيضاً:

١. التعليم.
٢. الإعلام.
٣. الأدوات المحلية (العلمانيون المحليون).
٤. التبشير.
٥. الاستشراق.
٦. القوة والاستعمار.
٧. المبادئ والأفكار (القومية، الإقليمية، الطائفية، الشيوعية).
٨. الصهيونية ودولة يهود.

---

(١) فاطر (٤٥).

٩. الاقتصاد والمال.
١٠. الرياضة.
١١. الأزياء.
١٢. المرأة.

ج- كيف عملت هذه الأدوات ميدانياً

١- نبذة تاريخية:

لقد كان الاستعمار أول الشر، ورأس الأدوات كلها، وهو أداة قديمة حديثة، فكر بها الغرب، من أجل نشر مشروعه وفرض نظرته، وذلك منذ بدأ الإسلام يفرد أجنحة أمنه وطمأنينته على مناطق العالم القديم، فكانت المناوءات مستمرة في الثغور الشرقية (معركة عمورية) وفي الثغور الأفريقية ثم الأندلسية، حيث كانت معركة بلاط الشهداء وغيرها الكثير من المعارك والمواجهات.

ثم جاءت الحروب الصليبية لتمثل الأوج في المد الغربي، المتطلع إلى القضاء على الإسلام ومشروعه الذي أنقذ المستعمرات الرومانية الشرقية من الظلم والانحطاط الإنساني والاستبداد الروماني الغربي.

واستمرت موجات هذه الحروب مدة قرنين تقريباً نالت منها بلدان الإسلام شتى أنواع الخراب والدمار والظلم على أيدي الغربيين قبل أن تطردهم قوى المسلمين.

لكن المعركة لم تنته، بل استمرت في إمارات الأندلس، حتى تحقق للغربيين إجلاء المسلمين من هناك، وذلك حين كانت آخر معركة مع أبي عبد الله الصغير، وقد حصل ذلك على هيئة من الغدر واللؤم، لا يستطيع القيام بهما إلا أهل الحضارة الغربية، فقد أرانا هؤلاء منها في المشرق أمثلة مروعة، إذ خاضت خيولهم بدماء المسلمين في شوارع القدس، بعد أن دخلوها أيام حروب الفرنجة.

٢- الأدوات في عصر النهضة

ولم تنته القضية.. فقد جاء العصر الحديث، أو ما يسمى بعصر النهضة زوراً وبهتاناً بنوع جديد من الاستعمار، راح يلقي بشباك هيمنته على العالمين العربي والإسلامي، من مشرقهما إلى مغربهما بالقوة العسكرية المدعمة بالتفوق التقني، وبجيوش جرارة من المبشرين والمستشرقين وفرسان التغريب الثقافي والفكري، مستخدمين أكثر الأدوات فتكاً في مسح

الأدمغة وتغيير البنـاء الثقافي والفكري للشعوب المغزوة، ابتداء بـالتعليم؛ إذ أدخلوا إليه المناهج الغربية والخطط التي تنزع منه هوية الأصالة والشخصية المحليـة. ومن أجل أن ينقلب النـاس على مؤسسـات التعليم المحليـة، قسموا التعليم في كل بلد بشكل تعسفي إلى تعليم (مدني) وتعليم (دينـي)، وراحوا يدخلون في روع الناس وبكل الوسائل الشريرة أن التعليم الديني تعليم متخلف وغير مجد من ناحية المادة والحياة، وأعطوا بعض الامتيازات لكل من يتخرج من مدارسهم التي جعلوها على خطة المنهاج الغربي من قبول سريع في الوظائف، إلى الأجور المجزية، إلى الرفعة المعنوية في المجتمع من خلال الألقاب والمكانة، بينما جعلوا خريج المعاهد المحلية مثل: جامعة الأزهر، أو الزيتونة، أو المعاهد الدينية، في المؤخرة، لا يستطيع خريجها تحصيل عمل، وإن حصله يكون أجره زهيداً، وبدون مكانة ولا ألقاب، هذا فضلاً عن تعرض حامل شهادات تلك المعاهد والجامعات للسخرية والاستصغار. وقد طبق هذا النهج تقريباً في جميع البلدان الإسلامية؛ في مصر، والمغرب، وبلاد الشام، والهند، رغم اختلاف الدول المستعمرة لتلك البلدان، وكل ذلك مدعماً بأوهام جاحدة لوجود الآخر، ولنقرأ ما قاله (غوستاف لوبون) عن هذا الجحود الذي أثر كثيراً في طريقة تعامل المشروع الغربي مع المشروع الإسلامي: (لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، فصارت جزءاً من مزاجنا وأصبحت طبيعة متأصلة فينا، تأصل حقد اليهود على النصارى ذلك الحقد الخفي أحياناً والعميق دوماً.

فإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة ضد المسلمين وهمنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة: (إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي)، أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا.

ويتراءى لبعض الفضلاء: أن من العار أن يُفَكّر في أوروبا أن النصرانية مدينة في خروجها من دور التوحش لأولئك الكافرين (أي المسلمين كما كان الغربيون يلقبونهم) فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة) [(١)].

ولقد راح الغربيون يُدخلون في مناهج التعليم المدني – الذي صاغوه على أعينهم – المعارف التي تخرج المتعلم من دائرة الإيمان إلى دائرة الضياع والتخبط، وذلك بتلقينه المستمر لأفكار كبار الفلاسفة الغربيين، ونظريات التطور والفرويدية التي تبدأ بتشكيكه بما وقر في صدره ورأسه من

---

(١) حضارة العرب – غوستاف لوبون نقلاً من كتاب المرحوم الدكتور مصطفى السباعي السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص (٢٦ -٢٧)

أفكار غائمة ضحلة عن الإسلام وعدله ومبادئه، ثم يلقونه بعد ذلك في خضم تيارات من الأدبيات المادية والجنسية، ويغرقونه في هموم أساليب الحياة العصرية، وتدابير مستحقاتها ومستلزماتها، فلا يجد ذلك المتعلم نفسه إلا وقد أحيط به من كل جانب، وهو ضعيف المقاومة، قليل الحيلة، ضحل الفكر، وفقير المؤونة، وعندئذ يظهرون أمامه بمظهر (فلاش) التنوير الذي ينقذه من الظلمة والتيه – حسب ظنه – فيلتقطونه ليزجوه في معركتهم مع الشعوب المغزوة، كرجل متنور متفلسف، يتكلم بطلاسم الغرب ومفهوماته، ويفسحون له صدور المجالس أو أبرز الصفحات من المجلات والصحف، وهكذا سقط الكثيرون في الشباك، مثل طه حسين، وزكي نجيب محمود، وقاسم أمين وغيرهم كثير.

٣- وخلاصة القول في هذا:

إن مجتمعاتنا الإسلامية وقعت على مدى أكثر من قرن من الزمان تحت تأثير تضليل استعماري فرض نفسه بالقوة، بعد أن مهد له التبشير والاستشراق بكم هائل من التحضير والأبحاث والتوطئة في الميادين جميعاً، ومن ثم راح هذا الاستعمار بعد أن وطد أقدامه في البلاد المستعمرة يبث تعاليمه وعاداته وقيمه وتراثه ومناهجه، مستغلاً المبشرين والمستشرقين والنخب المتغربة من سكان البلاد، والدسائس من الصهيونية، ومن دولة يهود الدخيلة فيما بعد، ووسائل الإعلام بمختلف أشكالها، والتعليم في كل المستويات والأدب والفن بكل أنواعهما من رواية وقصة وشعر ومسرح ونحت وتصوير وتمثيل، وكل ذلك من اجل أن يكبت صوت الإسلام أولاً، ومن ثم ليتم له تكييف البلاد المستعمرة بكل ما فيها من بشر وثروات وقيم لتقديم استحقاق رفاه الإنسان الغربي بدون عقبات أو تضحيات كبيرة ثانياً.

٤- كيفية الاستمرار بعد الاندحار العسكري

ولما قامت حركات التحرر من هذا الاستعمار في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ظل الاستعمار الغربي يقاوم الخروج بكل الأدوات التي ذكرناها إلى أن شعر أن تلك المقاومة بالقوة تكلفه من المال والأنفس أكثر من قيمة النهب الذي يحققه من خلال بقائه بالقوة، وهنا كان التفكير من قبل الغربيين بتسليم البلاد التي سيخرجون منها إلى النخب التي ربيت على عينهم من المتغربين المبهورين بفكر وصناعة وعلم الغرب وبمناهجه وطرق تفكيره ومنطلقات معارفه وأبنيتها، وأساليب الحياة الغربية ووسائلها، وكان لهم ذلك في معظم بلاد العرب والمسلمين.

ومع أن أكثر الحركات التي هبت تكافح الاستعمار وتسعى إلى طرده كانت

قائمة على أسس إسلامية، فقد وجدنا أن غالبية تلك البلدان حكمت بعد رحيل المستعمر من قبل النخب العلمانية المتغربة، وكأمثلة على ذلك: يأتي تسليم البريطانيين الحكم في عدن لحزب الجبهة القومية العلمانية الاشتراكي، رغم أنهم لم يشاركوا في حركة تحرير عدن اشتراكاً جدياً يماثل بلاء الفئات الأخرى، وكان ذلك التصرف منهم أبرز مثل على مكر الغربيين في هذا الاتجاه، وتشكل الثورة الجزائرية مثلاً آخر أيضاً، فقد بدأت تلك الثورة في أحضان إسلامية، الإبراهيمي و(ابن باديس) والأمير عبد القادر، إلا أن الفرنسيين في آخر الأمر، ومن خلال عملهم المتواصل عقوداً عديدة أبعدوا هذه الواجهة عن صورة حركة التحرير الجزائرية، ليوقعوها في أحضان النخب العلمانية الاشتراكية. ومن ثم ليعقدوا وثيقة الاستقلال مع هؤلاء مطمئنين على مصير الفرانكفونية العتيدة في الجزائر.

ولا ننسى أن نضرب المثل بالكمالية في تركيا، فمثلها واضح، وتهيئة الوضع لكمال أتاتورك من قبل الحلفاء في حينها ظاهرة للعيان، وإظهاره بمظهر البطل المنقذ لمصير الدولة العثمانية وتحقيق استقلالها أبرز من أن يذكر، وقد قام أتاتورك بعد ذلك بما قام به من إلغاء الخلافة، وإلغاء الكتابة بالخط العربي، وإلغاء وجود الإسلام، وإعلان العلمانية التي ما زالت تنخر في صلب المجتمع التركي حتى اليوم، حيث لا غرباً لحق ولا ديناً وتراثاً وأصالة وهوية حفظ، فهو بذلك يسدّد ديناً لزم ذمته بسبب تهيئة الغرب له وتمكينه في تركيا، ليظل مشروع الغرب يعمل. والأمثلة على هذا الاتجاه في الزمن اللاحق كثيرة في مصر وسورية وإيران والباكستان. ولقد كانت سورية ساحة لتجارب الغرب وتجاذباته في سبيل إبعادها – كدولة ذات أهمية كبرى في المشرق العربي- عن دينها وتراثها وحضارتها.

وكان أن وجد الغربيون. في عقود القرن العشرين الأخيرة ضالتهم في حكم عائلة الأسد المتوحشة.. فدعموها إعلامياً وسياسياً ومالياً، كي تقتل كل نأمة إنسانية تطالب بحقوقها، غير عابئة بالدماء والقتل الوحشي. وهاهم اليوم يعطون وريث أبيه الفرصة تلو الفرصة، كي يثبت كرسيه، ولو كان ذلك على حساب تدمير حياة الإنسان والوطن والقيم.. لأنه غارق حتى أذنيه بخدمة مشروعهم وهم غير متأكدين من توجهات البديل في سورية ولكن الله سبحانه يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٥- وحتى اللحظة فهي تعمل

إن أدوات المشروع الحضاري الغربي ما تزال تعمل في مجتمعات العرب والمسلمين فمن الاستعمار الثقافي والفكري والاستشراقي والصهيونية إلى المتغربين الملتحقين بركب فكر الأعداء، مدججين بحجج الانفتاح الثقافي والتعددية الفكرية والسياسية الخادعة، إلى الغزو الإعلامي الجبار الذي راح يبني فكر الناس في كل مكان، ويشكل عقولهم واتجاهاتهم، ويعلمهم وسائل حياتهم، ولا ننسى في هذا السياق أن نشير إلى أداة هامة هي التعليم الذي ما يزال يعمل بالطريقة التي ذكرنا صوراً منها، بل إنه ازداد في نقل التلاميذ والطلاب مسافات كبيرة بعيداً عن هويتهم وأصالتهم، وراح يفعل فعله في ضياع الشخصية الأصيلة للعربي المسلم. إنها معركة هائلة ما تزال محتدمة على أشدها، يقف فيها المسلم اليوم مصارعاً أدوات جبارة يستعملها المشروع المقابل، إذ يجب عليه أن يعرفها معرفة دقيقة وميدانية، وذلك ليضع رجله في ركاب النهضة والعبور من خلال تلك المعرفة، ومن بين أفخاخ المشروع الغربي، وفي خضم أمواجه العاتية، مستعملاً أدوات وتقنيات تكافئ أو تتفوق على أدواته وتقنياته، مستعيناً برصيد كبير من الإيمان والأصالة، مشرعاً خطاباً عالمياً يحمل هم الناس جميعاً، الذين باتوا يضيقون ذرعاً بحياة الوهم والسراب التي يعيشونها، ومتجاوزاً الإقليمية والوطنية والطائفية، تلك التقسيمات التي شحنت شعوب العرب والمسلمين بالفرقة والعداوات والالتفاف حول وثنيات الجغرافيا والحدود، وقد كان وما يزال أخطر هذه الأدوات هو سيطرة النخب المحلية المتغربة على كل شيء في البلاد الإسلامية، الحكم، والتعليم، ووسائل الإعلام والثقافة، وتصدرهم للاقتصاد، وتحكمهم بالجيوش ومصائر الناس، ونتيجة لذلك فُرضت على العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية أشكال الحياة الغربية بكل تفصيلاتها، ولنقرأ هذه الفقرة التالية من كتاب الأستاذ أنور الجندي شبهات التغريب: (وقد استطاع الاستعمار أن يحتوي عدداً كبيراً من أبناء المسلمين والعرب لهذا المخطط ممن علمهم في معاهد الإرساليات وجامعاته المتخصصة في هذا الشأن، أمثال معهد الدراسات الشرقية وغيره ممن استقدمهم إلى الغرب حيث تتلمذوا على المستشرقين وأساتذة مدرسة العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي والتفسير المادي للتاريخ، وهي مجموعة مختلطة، يجتمع فيها الفكر المادي والنزعة الماركسية والدعوة الليبرالية، ويستبطنها النفوذ التلمودي اليهودي الصهيوني الذي استطاع في السنوات السبعين الأخيرة أن يحتوي الفكر الغربي وأن يسيطر

عليه، وأن يوجهه إلى تنفيذ أهداف بروتوكولات صهيون) [1].

٦- وبعد

إلا أن الأمر لم يسلم لحملة التغريب تماماً، ولم تخل الساحة العربية والإسلامية لحظة ممن حملوا الأصالة والعقيدة والإسلام ونظافة فكره في قلوبهم، وجعلوا كل ذلك هماً لهم، وهاجس حياتهم، إلى أن بدأ الناس يستيقظون من سباتهم على وقع الهزائم والتراجعات الذليلة التي أحدثتها مناهج وفكر المتغربين من المتنفذين في مسار الشعوب الإسلامية، فراحت الجماهير تلوذ بأصالتها، وتطلب النجاة والنجدة من عقيدتها، ومخزونها الإيماني، الذي كان ساكناً ردحاً من الزمن، فاشتعلت جمرة الإيمان حركة وحياة، ابتعثت صحوة مباركة، نرجو لها أن تمتلك نواصي النصر، ومعاقد العزم، وأدوات الفهم، ووحدة الاتجاه والحركة إن شاء الله.

د- آليات المشروع الحضاري الغربي والتحدي لها

١- تعريف:

إن هذه الآليات تعني تلك الأساليب والطرق التي يتسلل من خلالها المشروع الحضاري الغربي بصور شتى، وقد كان الجمود التشريعي الذي فرضته ظروف إغلاق الاجتهاد أحد أسباب ذلك التسلسل، وكان السبب الثاني ما فعلته الأدوات التي استعملها المشروع. ونركز هنا على كلمة التسلل لأن الأمر حدث في ظروف قصور الوعي والاشتغال بالصغائر، وقد عمل الوقت عمله في هذا السبيل، إذ إن الفراغ التشريعي والإبداعي كان يُملأ بالجديد الغازي حيث يستقر هذا الجديد مكان الوعي الهارب من أهله في لحظات الذهول والانبهار، اللذين غذاهما الزمن والغفلة والفراغ، وهذا مصداق ما قاله المفكر الفرنسي مكسيم رودنسوون لجريدة الحياة في ١٩٩٢/١٠/٢٧ إذ أشار إلى التسلل بصراحة، فلنقرأ ما قاله:

(ففي الحقبة السابقة أي منذ عهد مدحت باشا ومنذ القرن التاسع عشر بصورة عامة، كان هناك في العالم الإسلامي وليس فقط في العالم العربي، (في العالم التركي، وفي العالم الإيراني، وفي غيرهما أيضاً) كان ثمة تسلل مارسته (الأيديولوجيات) الغربية في داخل نخب المجتمع بوصفها شرائح اجتماعية جاهزة لتلقي وصفات سياسية اقتصادية واجتماعية).

إن هذه الآليات هي بمثابة من يمهد الطريق لآلة الركوب التي يستعملها

---

(١) شبهات التغريب، ص (٣-٤) أنور الجندي، منشورات المكتب الإسلامي ١٩٧٨م

المسافر، فهي وسائل لتمهيد الطريق أمام الأدوات، بحيث تمكن الغازي من احتلال قلب وعقل وفكر المغزو، فيصبح السبيل أمامه سهلاً ميسراً ومشروعاً.

ومن طبيعة هذه الآليات أنها تعمل عملها في النفوس، دون أن تفطن تلك النفوس إلى ما يعمل بها وما يراد لها، بل إنها بعد احتلال تلك الآليات لدواخلها تقوم بتنفيذ المطلوب وكأنه جزء منها، أو أنه من اكتشافها وحسن أدائها، وهذا أخطر ما في تلك الآليات وأبعد أثراً في تحطيم العقبات المحلية الخصوصية، التي تشكل السدود أمام الغزو دائماً.

ولا نعني بكلامنا السابق أن الأمم يجب أن تغلق على نفسها الأبواب، وتصد جميع الرياح التي تطرق دائماً وبإلحاح تلك الأبواب، لا أبداً.. إنما نعني، أن لا تقف أمتنا من تلك الرياح موقف المهزوم المبهور، لأن مثل هذا الموقف يعني أن تحل تلك المستوردات - غثها وسمينها- محل مكونات الهوية التي منها تستمد أي أمة كيانها وميزتها ووجودها، وعندئذٍ إذا تم ذلك فقدت الأمة خصوصيتها وذابت في الوضع الجديد وأصبحت جزءاً منه. إن الموقف يجب أن يكون موقفاً انتقائياً، يأخذ السديد من الوارد وينبذ الرديء.

إن أمتنا سبق لها أن وقفت أمام مثل هذا الغزو الذي يحدث لها الآن، وذلك أيام غزو التتار، ثم الصليبيين، لكنها تماسكت حينئذ، وتمسكت بهويتها إلى أن فرّج الله عنها...إن الانتقاء والاستيعاب هو الموقف السليم الصحيح في مثل هذه الأحوال، لأنه بالذات الوضع الذي يمكن أمتنا من التفاعل وأخذ عناصر الصلاح والتقدم التي تنتجها الأمم الأخرى، والتي تكون بحاجة إليها، ومن ثم تتمثل تلك العناصر وتهضمها لتعطيها صياغة جديدة، تحمل طابعها وهويتها، وتنفي العوالق الضارة التي يمكن أن تكون قد صاحبتها.

نعم لقد تداخلت الأمور اليوم، وأصبح موضوع الانتقاء والتمثل من الصعوبة بمكان، بسبب ثورة الاتصالات العالمية التي جعلت العالم مدينة واحدة، يتبادل فيها الناس المعلومات والبضائع والأفكار عن قرب وبدون حذر، وأخذ الغزو الفكري والثقافي والتقني سمات جديدة، تخفى حتى على الناقد البصير، إن لم يكن منتبهاً متيقظاً تمام الانتباه والتيقظ، فكيف بأمتنا اليوم وهي تتناول من منتجات وإفرازات التقنية الحديثة ما طاب لها وما لم يطب وهي نصف غافية، كما أنها تتداول الأفكار (والموضات) والتقليعات السائدة كما تتداول رغيف الخبز الشهي.

لقد أصبح الطابع الذي يوضع على غلاف كل مستورد فكرياً كان أم تقنياً أم منهجياً يحمل سمة دخول بلا اعتراض، منذ أن وقف على بوابات أوطاننا

الإسلامية أناس من بني جلدتنا مُسحت من واجهة أدمغتهم فاعلية العلامات المميزة، التي تبعث الغيرة على خصوصيات هذه الأوطان والحرص المعتدل على كل ما يحافظ على الذات وعناصر تكوينها.

بل إن الأمر ذهب أبعد من ذلك، فقد اختلط أمر المعروضات حتى على بعض الغيورين أحياناً، بسبب علو الأصوات المروجة للبضاعات الصالحة وغير الصالحة، وحتى تلك التي فقدت مقومات استمرارها فوق أرضها التي أنتجتها، وراح أهلها أنفسهم يبوحون بعدم صلاحها. فبينما لا تزال تلك الأصوات عندنا تصيح بالجماهير لتقول لهم: إن الرأسمالية وديمقراطيتها واقتصاد السوق وعولمته هما نهاية التاريخ ونهاية الغايات إلى التقدم والرفاه. فإننا نجد (بابا) الفاتيكان يعتبر أن الرأسمالية غير المقيدة والمستوردة من الغرب على علاتها تخلف في المجتمعات المختلة البنيان – مثل مجتمعاتنا نحن – أثاراً مدمرة مثل تدهور الأخلاق، وانتشار شريعة الغاب، وسيادة المافيا، وتفشي العنف والفوضى الاقتصادية.

٢- الآليات:

لا يحصر هذا البحث كل الآليات التي استعملت من قبل المشروع الحضاري الغربي، بل هي كشف للغطاء عن بعض هذه الآليات التي رأيتها هامة وهي:

- الانبهار والافتتان بالتقدم العلمي الغربي والتقني.
- الشعور بالدونية.
- التقليد الأعمى.
- الفكر الاستهلاكي.
- الإقبال على الدنيا بنهم.
- إبعاد المرجع الرباني عن الحياة
- إفساد المرأة.
- إفساد الفنون بكل أشكالها
- الشهرة
- الرياضة
- السياحة
- الآثار والدعوات الهدامة
- تلغيم العلوم
- المؤسسات المشبوهة (للدراسات والبحوث وغيرها).
- إفساد مناهج التعليم

- الأزياء.
- استطلاعات الرأي

٣- كيف تعمل هذه الآليات

في الحلقة الماضية تكلمنا عن الأدوات، واليوم نقول إن هذه الأدوات لا يمكن فصلها عن الآليات، بل إن تلك الأدوات من أجل أن تنجح في عملها بدون إثارات أو استفزاز للمشاعر الخاصة والمميزات المحلية، اتخذت من هذه الآليات ركوباً للوصول إلى الأهداف المبتغاة، ومن هذه الآليات المركوبة (العولمة) التي وظفت أنجح توظيف انبهار الشعوب الراكدة بما عند الغرب من تقدم تقني وعلمي وأيضاً خضوع تلك الشعوب لمظاهر القوة. وكان أول السقوط في حبائل الآليات الغربية عن طريق:

أ- الانبهار:

إن الاستعمار كأداة من أدوات المشروع الغربي استخدم في التوطئة لنفسه وبث فكره وإحلاله محل الفكر الموجود فوق الأرض المستعمرة أدوات عديدة كالتبشير والاستشراق والقوة والعلمانيين وغيرها.. وهذه الأدوات ركبت آليات كثيرة للوصول كالانبهار، والشعور بالدونية، والتقليد الأعمى. هذا في البداية ولما تعمق الأمر ركبت كل الآليات الأخرى.

إن من عادة المهزوم أن يقلد المنتصر ويأخذ عنه فكره وثقافته في الغالب الأعم، خصوصاً إذا كان المنتصر متفوقاً في نواح كثيرة.

ولما كان المستعمر الغربي قد جاء محتلاً لأوطان المسلمين، وهو مزود بثروة علمية عالية، وتقنية آلية متفوقة جداً، سواء في الجانب العسكري، أو في الجوانب المدنية من الحياة، فإن هذا التفوق الكبير، بالإضافة إلى الغلبة، جعلت انبهار الشعوب الإسلامية بالذي عند الغربيين، مما ليس عندهم ولم يفكروا بامتلاكه مباشرة جعلته يفعل فعله بالدرجة القصوى، وقد مهد ذلك الانبهار – بعد الوهلة الأولى – لدخول الأفكار والمنهجيات الغربية بسهولة، إذ راحت تعم في بلاد المسلمين شيئاً فشيئاً، لتأخذ مكان ما هو قائم وسائد لدى شعوبنا، في حين باشر التقليد الأعمى فعله في الناس، وراح المستعمر أثناء وجوده وبعد أن رحل يرسخ ما يريد، من خلال هذه الآلية بين المسلمين وهم في غفلة الانبهار الأولى، كما أنه طرح الفكر الاستهلاكي وأراد له أن يعم ويسود ليرتبط الإنسان المسلم باللقمة والسعي لامتلاك القوة على الشراء وتأمينها لنفسه بكل وسيلة، بغض النظر عن مشروعيتها. وكان الهدف من طرح هذا الباب الخفي تعميم الفساد المالي والفساد الاقتصادي، وترويج

الفردية المغرقة، ونشر المافيات والعنف، والإقبال على الدنيا بنهم، وإيجاد الطبقية المقيتة، إذ يتوه المجتمع بعد ذلك في البحث عن أسباب كل ذلك الفساد فلا يجدها، لأن السبب الأول المتمثل في الابتعاد عن المرجع الرباني مروج له بقيم الاستهلاك، التي عددناها حيث لم يعد للأمة إلا ارتباط واهٍ بدينها وعقيدتها.

ب- وقيم الاستهلاك العولمية

إن قيم الاستهلاك التي دخلت على هذه الأمة من باب إغراق الأسواق بالسلع التقنية، كان لها فعل تدميري هائل في إبعاد المرجع الرباني عن حركة الإنسان في البيع والشراء والربح والرفاه والعلاقات البيئية الاجتماعية والسياسية.

وقد كان وجود هذه السلع في السوق بشكل إغراقي يظهر للإنسان العادي بمظهر بريء، بعيد عن أي سوء نية أو أهداف مرسومة تخفي خلفها نوايا تدميرية، تبتغي فصل هذا المجتمع عن مرجعه المكين – الإسلام – دون أن يشعر أحد بالحرج، أو يوجه اتهاماً لأحد!

وزينوا مراسم الهجمة، من خلال اقتصاد السوق الذي يقوم أول ما يقوم على قيم الاستهلاك، حيث أوجد الغربيون لذلك عدة آليات، يأخذ بعضها بعناق بعض، لتكمل حلقة الاستيلاء على النفوس نهائياً، وتطرد المرجع الرباني، وتبعد الدين الإسلامي عن مجالات الحياة جميعاً، ليستقر قابعاً في بيوت العبادة غير مسموح له بالتجول في البيوت والأسواق والدوائر. وقد دُعم ذلك بإقناع الناس بفكر: (دعه يعمل دعه يمر).

ج- وإفساد المرأة

وأثناء ذلك وبعده وإلى اليوم دخل المفسدون إلى وضع المرأة من خلال تخلف أحوالها، الذي أزرت به سنوات الجمود، وتعلق الناس خلالها بمفاهيم وعادات وممارسات أقل ما يقال عنها إنها جاهلية لا تمت إلى الإسلام بصلة.. فقد عاد كثير من الرجال في بلادنا إلى القول والاعتقاد بأن الأنثى أقل إنسانية من الذكر، وأن العار يلاحقها في كل حركة وسكنة.

وبناء عليه فقد أصبحت ممارستهم معها ومنطلق أفكارهم تجاهها مبنيين على ذلك الاعتقاد المأخوذ من تراث الجاهلية، وبذلك ضعف دور المرأة في مجتمعاتنا في القرون الأخيرة إلى حد الاندثار، واختصرت فاعليتها اختصاراً مخلاً بإنسانيتها، وقد عمّ هذا التوجه حواضر العالم الإسلامي، إلا ما كان من

وضع المرأة في الريف إذ بقيت محافظة على دور جيد مع محافظتها على أسس دينها.

والغربيون من هنا دخلوا، وآلية فاعلة اتخذوا، ومطية قوية وفاتنة استعملوا؛ حقوق المرأة، حرية المرأة وتحريرها، ضجة وراء ضجة، ينفخون في قربتها، مستخدمين الأدوات العلمانية المحلية، المتطلعة إلى الصعود والشهرة والمكانة والمنصب، وكان لقيم الاستهلاك دور كبير في إفساد المرأة، إذ سلط أصحاب المعركة المفتعلة على المرأة آلية الأزياء و(الموضة) زي للصيف، وآخر للشتاء، وثالث للربيع، وآخر للخريف، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى هدفين اثنين:

الأول اقتصادي، يبتغون منه الربح، والثاني فكري سياسي، يبتغون منه أن تخلع المرأة قناع الحياء والعفة، وتضع دينها خلفها، ومن أجل ذلك أثاروا ضجة كبيرة تحمل لافتة تقول: إن كل ما لحق بالمرأة من ضيم وهضم للحقوق وتجميد للفاعلية كان بفعل التمسك بالدين والحجاب!

وقد شكل هذا الباب ثغرة اختراق عريضة لمجتمعاتنا من قبل الآخرين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً؛ فقد تم لهم التحول الذي يريدونه في سلوكنا مع المرأة، وأضفنا بذلك قيمة استهلاكية جديدة، تزيد في العناء الاقتصادي، تتمثل في اتباع الأزياء والموضات، ومصروفات المرأة الجديدة الناتجة عن كونها أصبحت تمضي أكثر وقتها بعيدة عن بيتها، وهذا ما جعلها بحاجة إلى لباس خاص، وتبديل دائم له، وزيادة في استعمال وسائل التجميل، ومصروفات إضافية للتنقل، وهي أمور تبدو للوهلة الأولى بريئة محايدة، تثير أسئلة ساذجة من نوع:

هل تريد للمرأة أن تبقى رهينة البيت من جديد؟ وهل تريدها أن تخرج دائماً في ثوب واحد؟ ألا تريد لها التنقل والذهاب والإياب كالرجل؟ أليست هي المساواة؟ إنها أسئلة قد تبدو بريئة حقاً في الظاهر، ويكون الجواب عليها حاضراً جاهزاً يردد، لا.. لا يا أخي أنا لا أريد لها ذلك.

ولكننا لو فحصنا الأمر، وتأملناه جيداً، لاكتشفنا كم من الأعباء الاقتصادية يضيفه هذا التوجه فوق أعبائنا الموجودة؟ وكم من الافتئات نلقيه على كاهل الاقتصاد الوطني وتقدمه، حين يقول القائلون إن خروج المرأة المكثف يكسب ذلك الاقتصاد نصف العمالة المعطلة !!

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو: كم من السياسات التي اضطررنا للسير فيها، وكنا لا نريدها؟ لأن تسديد مقتضيات هذا السير يكلفنا

كثيراً، ويوصلنا إلى سياسات لا تلائمنا بل وتضربنا مثل: سياسة الاقتراض الدائمة، وسياسة الاستيراد المفتوح! وسياسات إنشاء المؤسسات المشبوهة التي تقوم مهمتها على الدفاع عن البرامج الغربية الوافدة ووهم نفي تهمة التخلف والرجعية، مثل مؤسسات ملكات الجمال، ومؤسسات عرض الأزياء، ومؤسسات المهرجانات المختلفة، القطن، وملكة جمال القطن، ومهرجانات الأماكن الأثرية، بصرى، بعلبك، وقرطاج وغيرها هذا فضلاً عن مؤسسات نقابات المرأة إذ أصبحت تلك المؤسسات بؤراً لترسيخ قيم الاستهلاك ومفاهيم تحرير المرأة من دينها وعلاقاتها الاجتماعية الراسخة، وكذلك إيجاد أمكنة تمارس فيها طقوس هدم بناء هذه الأمة القويم. تحت شعار العولمة الرائج رواجاً لا خيار فيه ولا اختيار ولا انتقاء ولا تمثل لعناصر النجاح ونبذ عناصر الهيمنة والفساد.

والخلاصة:

فإن المطلوب من المسلمين التعرف على أبعاد وسمات وظائف عمل هذه الآلية وغيرها، لنقيم تعاملنا معها ومع جميع مداخلاتها بوسائل مكافئة لوسائلها التي تدخل بها كل مكان بصورة خفية خطيرة. ولنصل بعد ذلك إلى الأخذ بيد المرأة كي تتعلم كل ما ينفعها في حياتها وآخرتها، بأريحية معاملة الإنسان للإنسان، ومعاملة الشق لشقه الآخر، بدل أن نبقى مقيمين حيثما أقامت الوسائل القديمة في مواجهة آليات المشروع الحضاري الغربي التي تستخدم بمهارة اخترقت كل مجالات حياتنا اليومية، اختراقاً خفياً وظاهراً، وعلينا أن نقيم المؤسسات المقابلة القوية الندّية، كي نحمي مجتمعاتنا من المؤسسات الغازية. وهذا تحد قائم فلنصنع منه بعض أدواتنا وآلياتنا في مواجهته.

د- والشهرة والمكانة

إن آليات المشروع الغربي كثيرة وتحدياتها للمسلمين كبيرة، ومن تلك الآليات – إضافة لما ذكرنا – نأخذ آلية (حب الشهرة والمكانة) لنقول: إنها نزعة موجودة في النفس الإنسانية.. والمحظور منها شرعاً أن تصبح هدفاً واتجاهاً غالباً في حياة الإنسان، متحولة إلى هوى طاغ. والسبيل السديد في التعامل مع هذه النزعة هو التسامي بها، والسير معها، لتكون محكومة بالإسلام، يهذبها، ويكرسها لخدمة الإنسان عامة والمسلم خاصة، ولكي نواجه تحدي مؤسسات المشروع المقابل في هذا المجال نقترح الآتي:

- **أن نرعى شهرة الأدب، من خلال مؤسسات أدبية إسلامية فاعلة وقادرة على التصدي لأدب الانهيار؛ مثل دور النشر التي تبني مهمتها على أساس من تبني المواهب ودفعها إلى الأمام، ومثل المؤسسات الإعلامية المكافئة التي تحتضن تلك المواهب وتقدمها إلى الجماهير بزخم، ومثل المؤتمرات والمهرجانات التي ترعى الأدب والأدباء وثقافة الإسلام الهادفة إلى إنقاذ الناس ورفعة أذواقهم ومشاعرهم. ومثل إنشاء منظمات خاصة بالأدب الإسلامي.**
- **أن ترعى شهرة في قضايا الزي والموضات وذلك ببناء مؤسسات تنتج كل ما يحترم إنسانية الإنسان ودوافعه النبيلة، وترتفع بذوقه إلى ما في الإسلام، من معانٍ جمالية رفيعة وأنيقة، وفي الوقت نفسه تبرز أسماء ومواهب في هذا المجال تستطيع الوقوف أمام تحدي طغيان الزي المستورد الهادف إلى إبراز حيوانية الإنسان وتأجيج شهواته الدونية، وأن نبني شهرة في الرياضة البريئة لا الصاخبة، التي تبتغي إلهاء الشباب والأجيال عما يدور حولهم، كما أرادها الغازون لمجتمعاتنا، وكرستها سياسات معظم أولي الأمر، إذ وجدوها ناجعة في إلهاء الناس – خصوصاً عنصر الشباب –عن سياسياتهم التي التحقت بالأعداء. هذا فضلاً عن الإسراف في الصرف على الرياضة.**
- **هذه بعض الأمثلة من مجالات الشهرة الكثيرة ومؤسساتها التي سيطر عليها الغربيون، وراحوا من خلالها يعملون لترسيخ أنماط حياتهم وإبراز الأسماء التي تتبنى هذه الأنماط على أنها هي الأحرى بالإتباع والتقليد والأولى باتخاذها قدوة. لذا فإنه يجب أن نرعى شهرة مؤسسة في كل مجالات الحياة وذلك من أجل أن نأخذ المبادرة من أيدي الذين يريدونها لخدمة غزوهم، ولنحول الدفة بالاتجاه الذي يخدم المرجعية الربانية، فنعيد عن طريق ذلك كله الأمان والعدل والتوازن للإنسان.**

وباختصار يجب أن نتخذ من الوسائل والإمكانات والمؤسسات آليات ناجعة للتعريف بدين الإسلام وقواعده، وذلك بقصد تحدي الهجمة العنيدة على مجتمعاتنا الإسلامية.

إن وسائل وآليات المسلمين اليوم مُقَصّرة في قضية التعريف بدين الإسلام وتقديمه إلى العالم بصورة مقبولة عصرياً، فكيف نريد بهذه الوسائل أن نتصدى لمقتضيات التحدي الحضاري؟ .. يجب أن نبرمج كل مجالات حياتنا

وذلك تحضيراً لتغيير آت يحتاجه العالم على أيدي المسلمين ولمصلحة الإنسان، فهذا (بيرك) يبشر بثورة حقيقية في الشرق الإسلامي إذ يقول: (إننا أمام تقاطعات لا نهائية، وإن ثمة رؤية تتشكل وإن هذه المنطقة حوض الحياة بالنسبة للعالم، وإن الوحدة العربية لا تنقذ العرب وحدهم بل تنقذ العالم، إن ثمة صدمة تتشكل، بعدها سيحصل الزلزال دون شك، ولكن هذا لا يعني أن نجلس القرفصاء على رصيف الزمن بانتظار حدوث ذلك، فالمهمة تبدو الآن أكبر بكثير، يجب أن لا يحصل الزلزال في الفراغ، لو حدث هذا لأخذت الصدمة شكلاً مغايراً للعظمة، إنها تعني الإبادة، وأنا أحذر!).

إنها السنة الماضية، فالأقدار لا تنتظر القاعدين أو العاملين بغير رؤية حالية ومستقبلية، وإن عدم التحضير للقادم من الأيام من خلال رؤية فكرية ورؤية حركية، مبنية على المؤسسات المكافئة، لتحويل الهجمة الغربية إلى الذوبان في منهاج الرحمة الربانية المتمثلة بدين الله القويم (الإسلام)، إن عدم التحضير هذا سيحول العمل الإسلامي وصحوته المباركة – لا سمح الله – إلى صيغ يأكل بعضها بعضاً، وتضيع الفرص، ويقف العمل في ذيل القافلة من جديد. وإن مما يساعد الصحوة هذه الأيام على طرح مشروعها الرباني المتضمن السياسة والاجتماع والاقتصاد والحياة عامة هذه الأزمات التي يمر بها العالم اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً بصورة خاصة منذ عام ٢٠٠٨ وحتى اللحظة حيث ثارت المجتمعات ومدنها في العالم لاسترداد كرامتها، ولطرد ذلك الزواج المتوحش بين السياسة والمال والاقتصاد، بصورة جعلت قلة قليلة من المحتكرين الكبار يسيطرون ويهيمنون على المال العالمي وعلى القرار السياسي والاقتصادي، وينشرون الفقر والبطالة والهوان في كل الساحات، راكبين في عربة العولمة السائرة على سكة اقتصاد السوق الوحشية وطرق عبور الشركات ذات الهيمنة والاحتكار إلى كل أنحاء العالم.

فالعولمة ليست مرفوضة من حيث الأساس.. إن المرفوض فيها تلك الصفقة!! البلطجية بين السياسي والمالي، ممزوجين بالأنانية، فاقدين للأخلاق، مستعملين القوة المتوحشة بعيداً عن العالمية المهتدية المبتغية مصلحة الإنسان، وهي العالمية التي حملها الإسلام إلى العالم بهديه السياسي والاقتصادي المحرم للهيمنة المانع للاحتكار، الحادب على الفقير، الحامل للأخلاق والتقوى والخوف من الله.

٤- أهداف وغايات

لا يخفى على المسلم الحصيف هدف الغربيين ومشروعهم الحضاري، متمثلاً بالتغلغل في صميم مجتمعاتنا الإسلامية وحميم علاقاتها وتعاملها

اليومي، كما لا يخفى عليه دوافع هذا الهدف لديهم التي نذكر منها:

أ- دافع عدائي متراكم، شكل حقداً، تكرس في العقلية الغربية ضد كل ما هو إسلامي، وقد عبر عن هذا الدافع عندهم العلامة الغربي (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة الغرب) إذ قال: (لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، فصارت جزءاً من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً والعميق دوماً، وقد انبنى على هذا الحقد رغبة عظيمة عند الغربيين لطمس دين هذه الأمة وطرده من مجال التأثير).

ب- دافع اقتصادي مادي، يتمثل في نهب ثروات المنطقة، والاستئثار بها دون أصحابها، وهذا الدافع لا يحتاج إلى برهان، فأمامنا تاريخ طويل من الاستعمار الغربي، عمل خلالها على جعل اقتصاد الأرض الإسلامية خادماً لاقتصاد بلادهم وصناعتهم وزراعتهم ورفاهية شعوبهم، وما زال الغرب حتى هذه اللحظات يفعل ذلك، ويطور وسائله وآلياته، لإبقاء بلادنا الإسلامية وشعوبنا تحت السيطرة.

ج- وهناك دافع خفي عند الغرب يدفعه للتصدي لهذا الدين هو الرغبة في إزالة كل أثر لفعل الرسالة التي بعث بها ملك إنكلترا إلى خليفة المسلمين في الأندلس، حيث اعترف فيها الملك الإنجليزي بتفوق المسلمين، وبحاجة الأوروبيين إلى علمهم وتقدمهم، الأمر الذي لا يريد الأوروبيون أن تطلع عليه أجيالهم، لأنهم يلقنونهم بكل الوسائل أنهم هم الحضارة، أولها وآخرها وكل ما عداهم تبع متخلف في آخر الركب.

وفيما يلي نص تلك الرسالة التي نشرتها مجلة الوعي الإسلامي في عددها السابع والثلاثين من السنة الرابعة آذار ١٩٦٨ في الصفحة الحادية والستين منها

(من جورج الثاني ملك إنكلترا والغال والسويد والنرويج إلى خليفة و ملك المسلمين في مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام.
بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم، لنشر أنوار العلم في بلادنا، التي يسودها الجهل من أركانها الأربعة.

ولقد وضعنا ابنتنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف إنكلترا، لتتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها

موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص).

من خادمكم المطيع جورج الثاني

ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج

إن هذه الصورة المشرقة لتفوق أمة المسلمين التي اعترف بها جورج الثاني هي التي يتحرك الغرب اليوم لإخفائها، من خلال مشروعه الذي لم يجد أي مقاومة تذكر، في أكثر الأنحاء من الكرة الأرضية، لكنه وجد التوقف والمراجعة في بلاد المسلمين، إذ تتجذر فيها ربانية، مهما خَفَتَ تأثيرها بفعل السنين والظروف وتراكم الغبار، تبقى تعمل في أشد الأحوال حلكة، للدفاع عن الإنسان والعدل والأمن الإنسانيين، بما اختزنته من فكر عميق وخبير بأحوال الإنسان وآماله وتطلعاته وما يصلح حاله خلال مسيرته الحياتية، وبما تعطيه من اتساع في الأمل وانسياح في الرؤى، إذ جعلت هذه الحياة الدنيا جزءاً يسيراً في جدول حساب بقائه الممتد إلى حياة أخرى، تضع الأمور في نصابها، وتعطي موازين الحق والعدل مصداقيتها، عندما لا تدع شاردة ولا واردة إلا تحصيها وتجازي عليها.

٥- نماذج من عمل الآليات

إن دراسة كل آلية وامتدادها وطرق عملها يحتاج إلى بحث خاص واسع، ولهذا فإننا في هذا البحث المخصص لبيان التحديات التي تعترض فصائل الصحوة الإسلامية لن نستطيع تقديم سوى نموذج واحد، ليقيس القارئ الكريم باقي الآليات عليها، فيتعرف على امتداد عملها بالمقارنة مع هذا النموذج أولاً، ثم بالاكتشاف الذي يستطيعه، بعد أن نكون قد قمنا من خلال هذا البحث بفتح الأبواب...

وهذا النموذج هو الرياضة:

فالرياضة وسيلة إنسانية ترفيهية وفنية وبنائية عالية، عندما تكون مضبوطة بالقيم والمصلحة وحدود الإمكانية والقدرة.

هذه الآلية التي بهذه الصفات ماذا فعل بها الغرب؟ وكيف وظفها في سبيل مشروعه الغازي؟ فيما يلي وصف موجز للفعل الغربي الذي نحن بصدده، نبتغي من بيانه أن نضع كل المخلصين من أمتنا أمام مسؤولياتهم في الدفاع عن هوية هذه الأمة.

أولاً: قائمة بالكيفيات التوظيفية لهذه الآلية من قبل الغربيين:

١. قتل الوقت في مشاهدة الألعاب، وإلهاء عن العمل المفيد وفي هذا من الخسارة الكثير.
٢. جعل الشهرة القائمة على الفردية القاتلة هدفاً يوظف أصحابه في تيار التغريب (ارجع إلى المشاهير من أساطير هذا الفن وانظر كيف أصبحوا أبواقاً للمشروع الغربي إلا من رحم الله (مثل محمد علي كلاي الذي حورب في أمريكا لأنه خرج عن خطوط لعبتهم).
٣. جعل متابعة أخبار هذا الفن وتكريس الوقت الكبير من قبل الناس له بديلاً عن التفكير بمصائرهم ومصائر أوطانهم التي تهدر كرامتها وتقرض أطرافها شيئاً فشيئاً (تابع الدوريات الكروية التي يتلو الواحد منها الآخر بدون انقطاع على شاشات التلفاز، أو مباشرة في الملاعب، وانظر كم من الحسرات تقطر من القلب والنفس على شعوبنا الإسلامية ؟ عندما نجدها ظاهرة عامة، يرتب فيها الموظف والعامل والتاجر والمهني والمرأة في بيتها أو عملها أوقاتهم، لتتلائم مع أوقات بث مباريات كأس العالم لكرة القدم، أو مباريات المهرجانات المحلية والإقليمية.

لقد رأيت الكثيرين كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، ينامون مبكرين في هذه الأيام، وعندما تسألهم: لماذا تفعل ذلك وأنت قد تعودت على السهر؟ يقول بكل بساطة: كي أنهض في الساعة الثانية ليلاً لأتابع مباراة كذا وكذا.. وهو في واقع الحال، وفي غير هذه الأيام، يسهر ملء (كيفه) وينام ملء عيونه، وينسى أن هناك صلاة عشاء، أو صلاة فجر، يجب على المسلم أن يؤديها في وقتها.

كما أنه ينسى التفكير بوضعه، ووضع أمته، والحروب التي تطيح باستقلالها، والتآمر الذي يحاول أن يأكل قلبها.. إنه هروب جماعي خلف الصفوف، صنع على عين مريبة، ودبر له مع الزمن، ومضي الوقت، حتى أصبح ظاهرة عارمة، تروج له الحكومات والهيئات الرسمية والشعبية وحتى الجماهيرية، كي يبتعد الناس كلهم عن التفكير في معركتهم الأساسية؛ إذ أصبحت الانتصارات والاحتفال بها مقتصراً على الغلبة في حلبات الملاعب الرياضية، فلم يعد المسلم يسمع من الانتصارات إلا انتصارات ملاعب الرياضة، واستعاضت الشعوب بها عن الانتصارات الحقيقية في الميدان الحقيقي.. العلمي، أو التقني أو العسكري لأن هذه الميادين سودتها الهزائم المستمرة، وهذا عين ما أراد لنا المشروع الغربي أن نحققه بفعلنا وإرادتنا

ولكن بغياب الوعي وحضور التقليد الأعمى ومناهج العولمة.

ترى كم من الخطر يكمن في هذا السلوك؟ وكم من الربح حققت آلية الرياضة للمشروع الغربي ؟ إذ جعلته يعمل بين جماهير مشدودة إلى الملاعب وإلى أجهزة التلفاز ليلاً ونهاراً تتابع المشاهد الساحرة. مع أن الرياضة الحقة ليست كل هذا الزيف والانحراف إنما هي عملية فردية تُسرّي عن الإنسان في بعض الأوقات، وتحاول بناء جسمه، وتعوده النظام والمرونة في حياته.

٤. المال المهدور الذي يذهب لنقل المهرجانات، وإقامة المباريات، وسفر الفرق وإقامتها في الفنادق، وما يهدر على طعامها وشرابها، ومن ثم بناء الصروح الضخمة للملاعب التي تأكل ميزانيات الدول، وتزيد في فقر الفقير، إن هذا المال كان من الواجب والحق أن يعمل لإنقاذ الجوعى وبناء قوى الأمة وتشييد مراكز الأبحاث الحقيقية لا الشكلية، القائمة حالياً في أنحاء متفرقة من أوطاننا لذر الرماد في العيون، إذ لا نجد لها أي مفعول أو أي صدى في ساحات الاكتشاف، أو السباقات العالمية في هذه المجالات. إن المشروع الغربي دفع بالآلية الرياضية دفعاً أوصلها إلى الأوج من التكاليف وهدر المال بلا مردود اقتصادي، وذلك بقصد توظيف موارد أوطاننا في مجالات لا طائل تحتها، بل لتكون بعيدة عن التفكير في المجالات الجادة، ولتصب موارد الأمة في خزائن الغربيين، إذ هم المخترعون والصانعون والمصدرون في مجال الرياضة.

ولنضرب على ذلك مثلاً عملياً: في سورية أيام الثمانينات من القرن الماضي قامت الحكومة من أجل استضافة دورة البحر المتوسط للرياضة ببناء ملاعب في اللاذقية وغيرها كلفت بمجموعها أكثر من ٦ مليارات من الليرات السورية أي ما يعادل مليار دولار في ذلك الوقت الذي لم تكن ميزانية الدولة تزيد عن ٤ مليارات دولار، بينما كان المواطن السوري وما يزال يلهث وراء الرغيف ليحصله من المخابز فلا يجده إلا بشق النفس، أو بانتظار الساعات أمام المخابز، بل وأحياناً بعد شجار وعراك: ولقد تحمل الشعب السوري من هذا الهدر زيادة في الأسعار، وتضخماً فادحاً، برز في سعر الليرة المتدهور وبطالة أودت بأمان الجيل الجديد، ولو أن هذه المليارات وضعت في مجال الأبحاث الزراعية التي تنمي إنتاج القمح والحبوب والقطن في سورية، لأعطت مردوداً يجعل شعب سورية في القمة، لاسيما أن عناصر الزراعة الناجحة في الوطن السوري متوفرة، الأرض الخصبة، والمياه الوفيرة، والطقس الجيد، واليد الخبيرة، ولكن المشروع الغربي، وذراعه المستغربة، ومكر الليل والنهار، أرادت كلها للشعب السوري أن يصل إلى درجة شراء

كيلو الخبز الواحد بـ ٨ ليرات ونصف أي أن المواطن السوري الكادح صاحب العيال سوف يكلفه تأمين الخبز اليومي لأولاده ٦٠% من دخله على الأقل.. فتأمل واحكم !

٥. والأزياء الرياضية ليست بعيدة عن اللعبة فهي تخدمها بما يلي:

- إنها تشارك وتخدم المشروع الحضاري الغربي من خلال غلاء أسعارها الذي يؤثر بدوره على اقتصاد الفرد واقتصاد الجماعة في آنٍ واحد.
- كما أنها تخدم من خلال إبعاد القيم عن ساحات الملاعب، وتغييب المرجعية الربانية في هذا المجال، وهي تتناغم في هذا مع مجالات أخرى كثيرة تعمل من أجل إبعاد هذه المرجعية عن ميادين الحياة المختلفة.

إن المتفرج الذي يرى عورة الرجل وعورة المرأة في الملعب أو المسبح أو في مشاهد التلفاز قد يستنكر ذلك في البداية، وقد يغض البصر، لكنه مع الأيام يعتاد على هذه المشاهد، لتصبح بالتالي عنده هي الأصل، ومن ثم ليصل إلى عدم استنكارها إذا رأى مثلها في الشارع أو في بيته، بل ليصل إلى عدّ ما يغايرها من احتشام وستر شذوذاً وتأخراً... وهذا هدف من أهداف هذه الآلية، وصلت إليه بعد طول ممارسة وأخذ ورد، ونجحت في توصيله إلى العامة إلا من رحم ربي.. أفلا تستحق هذه الآلية من الغربيين كل ذلك الجهد والمثابرة الطويلة؟ كي تفعل فعلها فتعولم الرياضة، وتحولها إلى ساحة تجارية متوحشة وساحة فساد، (كشف مؤخراً عن خيط من خيوطها في مؤسسات العولمة الرياضية). (واطلع إذا شئت على المعركة التي تديرها (فيفا) حول رفض دخول المرأة المحجبة إلى المباريات).. هذا مع تحفظنا على تلك المشاركات النسائية. محجبات كن أم كاشفات؛ فهي لعبة من ألعاب الأمم، الهادفة لإسقاط المرأة بإدعاء المساواة في حلبات لا طائل تحتها، ولا فائدة ترجى منها، بل هي البوار للرجل وللمرأة على حدٍّ سواء.

نعم إنها لعبة تستحق العناد والجهد الغربيين ..! إذ يكفي أنها تنتزع الحياء من آلاف الممارسين لهذه الهواية في العالم الإسلامي، وتصنع منهم أدوات دعائية متنقلة لذلك المشروع العولمي الغربي المتوحش، كما أنها تجمع الملايين حول هؤلاء.

إن الخطير في هذا الأمر هو أن هذه المعركة الرياضية الاقتصادية الفكرية الأخلاقية، تدار وكأنها من صنعنا ومن صميم إرادتنا في ظل توجيهات أصحاب القرار عندنا، وتحت رعاية جماهيرنا وتصفيقها وفرحها وحماسها.. بحيث أصبحت راسخة بقيمها الهابطة، ثابتة الأقدام في مسيرتها الفاعلة في

اقتصاد شعوبنا تدهوراً، وفي فكر أمتنا ابتعاداً عن ربانيتها، وفي أخلاق شبابنا انحطاطاً في مجالات الحياة السياسية والكفاحية التي تفرضها ظروف مثل ظروفنا.

فانظر رعاك الله إلى أي مدى وصلت فاعلية آلية مثل هذه الآلية،؟! رغم أننا قد لا نعيرها كل هذا الاهتمام، لدرجة أن بعض الإسلاميين قد تصيبهم الغفلة، ويقعون في إثم تلك العولمة وآلياتها التي تعمل على الإفساد بصورة خفية.. فهم يقومون بالمشاركة في هذا التيار الهادر بشكل أو بآخر.

ولقد اخترت هذا النموذج وبيان أبعاده عن قصد مني، لأن الناس لا يأبهون به كثيراً، لشدة الضغط الذي يقع عليهم من مجتمعاتهم، التي أصبحت تعتبر هذا الموضوع مائدة يومية، تغدق عليه من آيات المديح والثناء والترويج، مالا تغدقه على أي موضوع آخر يخص صميم شؤون الحياة الميدانية للمواطن، كما هدف هذا الاختيار لتنبيه المخلصين إلى ما هو ملازم في التأثير في حياتنا وخصوصياتنا لآلية إفساد المرأة، وقضية الفن بكل أشكاله السينمائية والتلفازية والروائية والشعرية والقصصية والمسرحية والرسم والنحت والتصوير.. والسياحية الفاسدة المفسدة وغيرها..

وليبحث المخلصون بعين بصيرة عن كيفية توظيف الخبثاء لكل هذه الفنون في أرضنا وبلادنا ولدى شعوبنا لإبعاد المرجعية الربانية وقتل طموح التقدم والنهوض وجعلنا بالتالي مجرد تابعين في ذيل الركب الآخر.

وبعد:

قد يسأل البعض قائلاً: لقد شرحت الآليات وعددتها وأعطيت نموذجاً حياً عن عمل واحد من الآليات، فهل عندك اقتراحات تقترحها على فصائل الصحوة للعمل؟..

وأقول جواباً على ذلك الاستدراك الاستفهامي: إن الاقتراح الذي يوضح السبيل إلى العمل يحتاج إلى جهد أكبر من الجهد الفردي، فهو يحتاج إلى خبراء في مجالات كثيرة، يقومون بدراسة عميقة جادة، يخرجون من خلالها بآليات مكافئة أو أقوى، واضعة نصب عينيها كل الإيجابيات التي يحملها المشروع الغربي في طياته، وكيفية الاستفادة من هذه الإيجابيات واحتوائها في باطن مشروعنا القويم.. بعد استيعابها واحتوائها.

ويجب أن أعترف في النهاية أننا نحتاج إلى كثير من الإخلاص والصدق مع الله، ولا ننسى في هذا المجال اقتباس مقولة.. للداعية الكبير ذي الخبرة

والحكمة الشيخ محمد الغزالي الذي يقول في كتابه (السنة النبوية).

(لكن المهارة في الدنيا خطيرة الآثار، وكذلك الخبرة الإدارية الواسعة، ويوم يكون الملاحدة مكرة مهرة خبراء أذكياء، ويكون المؤمنون سذجاً أغراراً، فإن مستقبل الإيمان على ظهر الأرض ضائع يقيناً)[١].

فيجب أن لا نكون سذجاً ولا أغراراً، بل يجب أن نتحرى المهارة فنتقنها، والخبرة فنستوعبها، وإدارة مشروعنا الإيماني بذكاء ومؤسسية وأدب وخطة محكمة تسير بنا للأمام إلى أن يقدر الله لها ولنا التمكين.

إننا لا ننشد ذلك من أجل أنفسنا أثرة وأنانية.. لا .. إننا ننشد ذلك لإنجاز عملية إنقاذ، تنشدها الجماهير الإنسانية، التي ضاقت ذرعاً بالمادية والبراغماتية والتهديد بالدمار والانهيار الروحي والأخلاقي، وذلك كله هو الذي جلبه وكرسه معه المشروع الغربي أينما حل.

وخلاصة القول:

إن التحديات أمام المشروع الحضاري الإسلامي كثيرة، وإذا اقتصرنا في كتابنا هذا على أهمها، فذلك من أجل التيسير وضرب الأمثال، وإن المشروع الحضاري الغربي المقابل ليس بالمشروع البسيط ولا الساذج، ولا هو كما يصوره بعضنا- بالمفهوم المسطح للأمور – المشروع القادم على الانهيار بسبب ما يعتري صفحاته من مظاهر الفساد. وإن التحدي الأكبر الذي يواجه الصحوة هو استطاعة التغلغل في داخل هذا المشروع، ومعرفة عمله وأدواته وآلياته والمؤسسات، التي تجعل من مشروعنا مستوعباً ومنقذاً للإنسانية من سوءات وأنانية وجفاف ذلك المشروع وبعده عن الله.. وإنني لم أقل في هذا الموضوع إلا القليل، ولعل كتباً أخرى تؤلف من قبلي، ومن قبل غيري، تستطيع في قابل الأيام الإمساك بكل واحدة من أدوات المشروع الغربي وآلياته وتشرحها بالتفصيل، وتقترح ما يفرضه علينا التحدي بشأنها.

---

(١) من كتاب السنة النبوية للشيخ محمد الغزالي ص١٣٨ الطبعة الرابعة/ دار الشروق (إبريل، نيسان ١٩٨٩).

المبحث الرابع

تحديات الثورات والعولمة

وقبل أن أختم كتابي هذا يجب أن أشير إلى ما استجد في الساحة من تحدٍ هام للحراك الإسلامي فأقول: لقد جاء هذا التحدي على شكل ثورات شعبية سلمية في العديد من بلدان العرب، وإن المقام يقتضي أن لا أغادر الكلام قبل إلقاء كلمات سريعة في هذا السياق أعالج فيها قضايا منها:

أولاً: المشاركة في الثورات.

ثانياً: دفع تهمة الإرهاب عن دعوة الإسلام التي أراد الغرب إلصاقها بها، محاولاً بذلك إيقاف مد المشروع الحضاري الإسلامي وتعويق اكتمال بنائه، فقد هيأت الثورات السلمية أرضية طيبة للحراك الإسلامي، كي يقوم بذلك الواجب.

ثالثاً: كيف تطرح الصحوة مشروع الإسلام من خلال الثورات.

رابعاً: كيف تُحمى الثورات من ركوب تيارها لصالح المشروع الآخر.

وإجابة عن كل سؤال من الأسئلة الأربعة السابقة.. فقد أقول: مع أن الموضوع يستحق كتاباً خاصاً يخوض في تفصيلاته وفي مداخلاته الكثيرة، لكنني آمل في هذه العجالة أن أقول فيه قولاً يدخل ضمن بناء التغيير، الذي هو هدف غائي للصحوة بشكل عام..

أولاً: بشأن المشاركة في الثورات

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1].

لقد ران على أوضاع الأمة منذ مئة عام وأكثر ركود وخمول فكريين وحركيين، أديا من ضمن ما أديا إليه إلى تبعية للغرب في كل شيء؛ في السياسة وفي طرق العيش، وفي أشكال الدول وفي أبنية السلطات، كما ساد في الساحة الفكر الغربي القومي والإقليمي والعرقي.. فتشرذمت البلاد، وتقوقعت السلطات، كلٌ على قطعة من الأرض صغيرة كانت أم كبيرة، جعلت منها صنماً يعبد، وذلك حفاظاً على مواقع وامتيازات من ملكوا تلك السلطات

---

(١) سورة الرعد آية: ١١

بـأي شـكل مـن أشـكال الامـتلاك.. وانتشـرت بـذلك الـديكتاتوريات، وهـيمن الاستبداد والفساد ونشر الفقر والجهل والعصبيات والتخلف العلمي والإداري والسياسي والاقتصادي كآبته على كل الأنحاء، وكانت الطامة الكبرى متمثلة بتحول العديد من الحكام والنخب عن شريعة الإسلام وأخلاقه وسلوكه، عادين ذلك التحول تقدماً وحداثة، دافعين المجتمعات والشعوب للانحياز إليه.

ولقد حدث أن ساعد على ذلك الخراب كله وقوع معظم بلدان العالمين العربي والإسلامي تحت وطأة الاستعمار الغربي، مما كرس ذلك الخراب وزين له وجعله برنامجاً فاعلاً في حياة الأمة؛ بدءاً من عند البناء وأشكاله، إلى أسلوب الحياة داخل ذلك البناء، ثم إلى الملابس وأشكالها وأزيائها، وما تحدثه من آثار تبدو بريئة في الظاهر، لكنها تحفر عميقاً في النفس وكيفية التصرف والسلوك والعادات والأخلاق، وإذا أردنا البرهان فلنشاهد الشارع العربي، ولنرى كيف كان التأثير السلبي الكبير للتبعية في كل مناحي الحياة.

وبعد أن تحررت البلاد من ربقة الاستعمار على أيدي المجاهدين، ممن كانوا يحملون فكر وسلوك الإسلام، وسطا على السلطة في كثير من أقطار الإسلام بمساعدة من المحتلين المغادرين نخب عسكرية صنعها الاستعمار على عينه، ليكونوا يده وفكره وتوجهه، بغية إبقاء البلاد ضمن منظومة التبعية له، تحت لافتة التقدم والتحديث والنهضة، ومن ثم ليعملوا على إقصاء وملاحقة الفكر الإسلامي ودعاته وإبعادهما عن مراكز التأثير في مختلف مناحي الحياة الوطنية والإقليمية. وهكذا ظل العباد والبلاد تحت رحمة أولئك النخب من التابعين للغرب، الذين يطلقون على أنفسهم أسماء لامعة من مثل العلمانيين والليبراليين والحداثيين.. وذلك منذ عشرينيات القرن العشرين وحتى اللحظة التي نحن فيها الآن، حين تحركت مجتمعاتنا بثورات سلمية شعبية عارمة، تريد التغيير الشامل لكل الخراب الذي أحدثته مناهج التبعية العلمانية التي تدعي الحداثة والنهضة والتقدم.

وبناء على ذلك.. جاءت مشاركة الصحوة الإسلامية بفاعلية بذلك الحراك الشعبي التغييري لأنه يقع تحت حكم الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

فمن تونس إلى مصر إلى ليبيا وإلى المغرب العربي والجزائر وموريتانيا وسورية واليمن وغيرها من الأقطار التي شكلت الصحوة فيها ركناً أساسياً من ذلك الحراك المبارك، حيث شارك الحراك فيه مشاركة تتصف:

- بإنها مشاركة وليس احتكاراً من الحراك الإسلامي للساحة وتوجهاتها، بل هي مشاركة لتوطين الحريات ولمواطنة سوّية، ولرعاية حق الإنسان الكامل في الحياة وفي حرية الرأي والتعبير العاقل المتزن. وفي حرية التدين الذي لا يعتدي على عقيدة الآخر ولا على أشخاصه ومؤسساته وممارسة طقوسه.
- كما أنها مشاركة من أجل بناء وطن هو للجميع، تقوم فيه الحياة العامة على الحرية المسؤولة، وعلى التعددية المتزنة، وعلى تداول السلطة السلمي القانوني الدستوري وعلى المواطنة الكاملة، وعلى نبذ الفرقة والتشرذم الطائفي أو العرقي، أو الفئوي.
- وهي مشاركة للتسديد، وللوصول إلى غايات التغيير، ولإقامة السلم الاجتماعي المحلي والإقليمي والدولي، ولحرية الدعوة إلى الإسلام وشريعته وأخلاقه وآدابه، الذي تنظر الصحوة إليه على أنه الطريق السليم السديد لتحقيق كل ما ذكرناه آنفاً.. فإن أُخذ به حمد الناسُ الله على هداه، وإن لم يكن ذلك فالسبيل هو العمل السلمي العقلاني، للوصول إلى اقتناع الناس به من جديد.. ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١].

ثانياً: بشأن دفع تهمة الإرهاب

- إنه بهذا الشأن يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في مقال له عن خصائص الخطاب الإسلامي[٢]: «فينبغي على الدعاة أن يقودوا الناس إلى الله تعالى بزمام الحب، بدل أن يسوقوهم بسوط الخوف» ويورد لذلك التوثيقات الآتية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣]. وقوله ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[٤]..

(١) سورة يوسف آية: ١٠٨.
(٢) من مقال له منشور في مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية، ونقلته عنه مجلة اللواء الأردنية في عددها ١٣١٤/ ٣ آب (أغسطس) ٢٠١٠ وفي صفحتها (٢١).
(٣) سورة البقرة آية: ١٨٥.
(٤) متفق عليه.

- ويشرح الشيخ هذه المعاني القرآنية والسنية بقوله: «وينبغي للخطاب الديني اليوم أن يتبنى منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة» [١].

واليوم.. فإن الفضاء مفتوح للمقال والفهم وللبيان، ولا يحتاج الحراك الإسلامي لدفع تهمة الإرهاب عن نفسه إلا إلى الاجتهاد والجهد، لبناء خطاب إسلامي سديد متوازن موضوعي ميسر مبشر موضح، بعيداً عن العنف واللمز والهمز والشدّة في فروع الدين القابلة للآراء وللاجتهاد، فهذه وسائل الإعلام - ونخص بالذكر هنا فضاء الشبكة العنكبوتية – المفتوحة لكل من أراد البيان والدعوة وقيادة الآخر إلى الله بالتحبب والترغيب والتيسير، فلنطل على العالم بجبهة ناصعة بيضاء نقية، تحمل الكلمات الطيبة الرقيقة، ولنتعظ بآيات الله ونتبعها، ولنستمع إلى سنة رسول الله ﷺ حيث يوجهاننا ويأمراننا ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [٢].

و: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [٣]. «وألا أخبركم بمن يحرم على النار – أو بمن تحرم عليه النار – تحرم على كل قريب هين لين سهل» [٤]، فهذا الخطاب يتضمن فيما يتضمن بياناً شافياً للناس، - ونخصّ بالذكر الغربيين منهم – حول مفهوم الجهاد.. وذلك من خلال فهم عصري قريب مما يفهمه العالم في عصرنا.. فقد اتخذ الأعداء من المغالطات حول هذا المفهوم أداة لإلصاق صفة الإرهاب بالإسلام وحملته ودعاته، وقد ساعد هؤلاء في إيصال هذا المعنى إلى شتى المجتمعات ممارسات مارسها من قصر به فهمه وفقهه من المسلمين الفقراء بفقه الأولويات وفقه المقاصد والمآلات، كما أنهم قصروا بفهم العصر وما يصلح له من أسلوب وخطاب وممارسة.

وبناء عليه نورد فيما يلي بعضاً من مواصفات ذلك الخطاب، الذي يرد على كل المغالطات المُسوَّقة بهدف تشويه صورة الإسلام وحامليه، وهي مواصفات تطبع المسلم بإنسانية عالية غالية، وفي الوقت نفسه تخرجه من دائرة الجبن والخذلان، وترفع من قيمة الشجاعة في جهاد الدفع، وفي جهاد الطلب ضد من يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويحيكون الكيد والتآمر على

---

(١) من مقال له منشور في مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية، ونقلته عنه مجلة اللواء الأردنية في عددها ١٣١٤/ ٣ آب (أغسطس) ٢٠١٠ وفي صفحتها (٢١).

(٢) فصلت آية: ٣٤.

(٣) الأعراف آية: ١٩٩.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

دينهم وأوطانهم ومواطنيهم.. وهما جهادان لا يتخلى عنهما إنسان أو جمع أو دولة في هذا الكون مهما كانت ملتهم، ومهما كانت توجهاتهم وسياساتهم فلم يحدث في هذا العالم قديماً أو حديثاً أن تخلت جهة ما عن مقاتلة الصائلين ودفعهم، ولا عن مواجهة ومصاولة المتربصين الذين يتربصون الدوائر للفتك بقبيلهم، مما نسميه نحن في فقهنا جهاد الطلب، الذي يدخل فيه حماية المستضعفين ونصرة المخذولين، ودفع أذية الاستبداديين الفاسدين القتلة.

والمثال الصارخ على ذلك في عصرنا هو المداخلات الأممية لحماية المدنيين، ودحض مفتريات الديكتاتوريين في العديد من بلاد العالم.. وإن كنا نعيب على هذا الدفع الأممي أنه مدخول بالمقاصد الذاتية والمطامع غير المشروعة للقوى الدولية، في حين أن هذا النوع من الدفع بالمنظور الإسلامي يكون خالياً من المضمرات والمطامع، فهو لله ولوجه الله ولحماية الإنسان وإنقاذه من براثن المغتصبين للحكم، المستبدين بالسلطة، المغيبين لإرادة الشعوب، قتلة الناس والحرية والفكر والفن.

وهذا الدفع الإسلامي بأنواعه، هو ما حاول ويحاول أعداء الإسلام إدخاله في باب الإرهاب.. فالعدوان حلال ومطلوب عندما يقوم أولئك به تحت شعار التحرير أو الدفاع عن الحقوق الزائفين، وإرهاب وعدوان عندما يقوم به المسلمون، مع أن المسلمين يتميزون بالدفاع عن بلادهم وممتلكاتهم وأنفسهم وعن المضطهدين من المستضعفين في حروبهم بأخلاقيات الإسلام في الغالب الأعم.. فهم في دينهم ودنياهم في حروبهم وسلمهم متبعون لا مبتدعون:

بدايتهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[1]. وإذن فالحوار الحسن ركن ركين في قلب المسلم، يسبق أي تصرف منه تجاه موقف قبيله ومواجهه.

- ثم تترى في قلبه وحواسه وتصرفاته التعاليم الربانية، فهو مهتدٍ بهدي رسول الله ﷺ الآمر في آداب الجهاد بقوله: «بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً»[2].

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٥.

(٢) رواه أبو داوود في الصحيح والطبراني.

وهكذا فإنه الجهاد ذو القصد الإنساني الرحيم، هو: بسم الله ومن اجله وعلى ملته لا غدر فيه ولا خيانة، ولا انتقاماً يدفعه ويقوده. ولا اعتداء على من يسمون اليوم «مدنيون» من الأطفال والنساء والشيوخ.. الذين لا يقاتلون.

- ولن يكون جهاد المسلم عصبية عمياء، يخرج فيها الرجل – كما تخرج جيوش الغرب اليوم – للقتل والعدوان وللسلب والنهب والاحتلال والانقضاض على خصوصيات الأمم والشعوب، فرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يبين لنا ببلاغ عظيم أنه: «ومن قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتل فقتله جاهلية»[١].
- وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٢].
- كما نهى عليه الصلاة والسلام «أن يلقى السم في بلاد العدو»[٣].
- وقد حدّد رسول الله ﷺ معنى الشهادة ومواصفاتها إذ قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» [٤].

وهذا لمن قتل في المواجهة سواء كان في جهاد دفع أو جهاد طلب، يبتغي دفع العدوان الذي يبيت، أو الدفاع عن الإنسان وحريته واختياره.. أما الشهداء في غير القتال فهم كثرة، ولهم أحكامهم الخاصة.

- وإننا لمأمورون بالأخذ بالحسنة والمبادرة بها، والبعد عن المبادرة بالعدوان، فقد قال ربنا جل وعلا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٥].

وليس كالمسلمين من بني البشر وفاء بعهودهم ومواثيقهم، لأن ذلك الوفاء نابع من عقيدة ودين، وليس من مصلحة قد تتغير وتتبدل حسب الظروف، فينقض العهد والميثاق والاتفاق لأتفه الأسباب، أو أنه لا يوفى به من الأساس، كما يفعل يهود هذه الأيام وكما يفعل غيرهم أيضاً. وإن الوفاء

---

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) الطحاوي.
(٤) رواه أبو داوود والترمذي. وقال عنه حديث حسن صحيح.
(٥) فصلت آية: ٣٤.

بالعهود مأمور به من رب العالمين بقوله جل من قائل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[١]. **وبقوله تعالى:** ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾[٢]. **وبقوله جل وعلا:** ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾[٣].

وبقوله ﷺ: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهداً ولا يشدنه، حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء» [٤].

- **وإن العفو والتسامح والصفح الجميل وكظم الغيظ أخلاق أصيلة في ممارسات المسلم المجاهد.. فهو قد بنى كل ذلك بأوامر الله سبحانه وتعالى وبتعاليم رسول الله ﷺ.**

فقد قال رب العزة: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٥].

وأمرنا بالعفو فقال جل من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٦]. **وحذرنا من الآخرة، وقرن ذلك بالصفح الجميل فقال جل في علاه:** ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[٧].

وهذا رسول الله ﷺ يفصل في خلق العفو والصفح والرفق فيقول: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف، ومالا يعطي على ما سواه» [٨].

والرسول ﷺ يُضرب ويُدمى وجهه، فيمسح الدم عن وجهه وهو يقول:

---

(١) الإسراء آية: ٣٤.
(٢) النحل آية: ٩١.
(٣) سورة الرعد آية: ٢٠.
(٤) رواه أبو داوود والترمذي
(٥) سورة الأعراف آية: ١٩٩.
(٦) سورة آل عمران آية: ١٣٤.
(٧) سورة الحجر آية: ٨٥.
(٨) رواه مسلم.

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

وهو القائل: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» [٢] وقال مطلقاً معنى الرحمة: «من لا يرحم لا يُرحم» [٣] وقال:«لا تنزع الرحمة إلا من شقي» [٤].

- وإن لسان الصدق والعدل في القول والفعل لهما بوابة الجهاد الصادق، الذي يجول به المسلم في الأرض مدافعاً أو طالباً الرحمة للناس وحرياتهم وكراماتهم وحرّ اختيارهم، فهو في الحالين مدافع عن الإنسان بصدق اللسان، وعدل الأقوال والأفعال، وهو رحمة وصفح وعفو عن المعادين حين يسقطون: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٥]. و ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[٦]و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٧].

وهكذا تمضي النصوص القرآنية وحديث رسول الله ﷺ في وضع قواعد الجهاد الصادق وأخلاقه الحميدة، ليتبدى لنا ذلك إذا راجعناه في سلوك الرجال العظام من الصحابة الكرام ومن التابعين ومن تبعهم بإحسان أيام البأس وفي ساحات الوغى، حيث وجدنا الأمثلة الرائعة على مرّ الزمان رحمة وعدلاً وتسامحاً وبعداً عن العدوان، وتقديماً للكلمة الطيبة ومبادرة بالحوار والدفع بالتي هي أحسن.. والأمثلة على ذلك كثيرة، يرجع إليها في مظانها من يريد البرهان القاطع على رحمة حروب المسلمين والبناء فيها على المقصد الإنساني لإنقاذ البشرية من ظلمة الشرك وظلم وطغيان المتنفذين فيهم. (وارجع إذا شئت إلى ما فعله المنتصر أبداً بعون الله خالد بن الوليد في حمص مع أهلها من إعادة ما دفعوه إليه مقابل حمايتهم من جيش الروم، فلما عاد جيش الروم إلى حمص وحدث شك في إمكانية حمايتهم.. أعاد إليهم ما دفعوه.وكذلك ارجع إلى ما فعله جيش الإسلام في سمرقند بعد فتحها، حيث خرج الجيش الإسلامي منها لأنهم لم ينذروا الناس في المدينة ولم يخيروهم في مبتدأ الفتح بين الإسلام أو الجزية أو الحرب. وكذلك ارجع إلى ما فعله

(١) رواه أبو داوود.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه أبو داوود.
(٥) سورة الأنعام آية: ١٥٢.
(٦) سورة الحج آية: ٢٤.
(٧) سورة التوبة آية: ١١٩.

صلاح الدين بعد فتح القدس، من عفو ورفق مع أعدائه الذين قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين عندما احتلوها... وهذه أمثلة قليلة وحسب، والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى..

ثالثاً: كيف يشارك الحراك الإسلامي في الثورات

إننا بهذا الشأن نقول:

أ- إن ما أوردناه من مواصفات الخطاب في الفقرة السابقة واجب ميداني، يقتضي بذل الجهد الطيب، من أجل إيصال الكلمة الطيبة للثوار وللناس جميعاً، وهو أيضاً مدخل مناسب للثورات كي توصل صوتها نقياً صادقاً مقنعاً.

ب- وبالتواضع ونبذ الفوقية واعتماد مبدأ: أن الحراك الإسلامي هو جزء من الحراك العام، يبذل ما يبذله الناس جميعاً من أجل الخلاص والتغيير، بعيداً عن روح الاستعلاء، و نفسية الطموح إلى احتكار المآلات ونبذ روح الهيمنة على نتائج الحركة بأنانية وأثرة بغيضة. وذلك إتباعاً لقول الله جل في علاه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[1]. وكذلك عملاً بتوجيه رسول الله ﷺ الذي يأمرنا به بقوله: «إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[2].. فليس هناك استطالة ولا كبر ولا لمز أو همز.. وقد وجهنا رسول الله ﷺ أيضاً بقوله: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»[3].

ج- تقديم الحراك الإسلامي خالياً من أي إشارة إلى طائفية أو عرقية أو فئوية..بل هو الحراك الذي يتبنى وطنية تسودها المساواة والفرص المتكافئة والمشاركة الكاملة، وأنه جزء من النسيج العام للشعب والثورة، وهو الأوسع صدراً، فهو يعلم أن عند كل الناس علماً وآراءً وحلولاً، وذلك كما هو عند الحراك، وأن جميع الحلول والوسائل والآليات والكيفيات محل نظر وفحص وتمحيص، دون أن ينصب أحد نفسه فوقياً مهيمناً ملصقاً التهم للآخر، تقصيراً أو خذلاناً أو تحفزاً للقفز فوق السّدّة.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٦٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

إن الحراك الإسلامي في خلاصة القول حراك ديمقراطي حر، منفتح غير متشنج ولا إقصائي ولا مدعٍ أو طامح إلى قفز.. بل هدفه ما توافق عليه جمع الثورة والشعب بكل الوسائلَ والآليات المتفق عليها. وإن كان هناك من تنافس فهو التنافس على الإقدام والبذل والتضحية.

فضلاً عن العدل بين الجميع بعيداً عن النظر لأي تفريق بين عرق أو دين أو حزب أو فئة أو اتجاه أو جنس، وذلك كله مع إحساس عميق بمسؤولية التغيير، وبمعرفة كاملة بصورة الواقع ووعي سديد له وبإمكانات الناس والشعب والثورة، وبوضوح ناصع لكيفية المشاركة السياسية والمجتمعية، متضمناً ذلك الوضوح في اتجاه الحراك نحو النظام السياسي المطلوب والعمل الحزبي المنشود والحرية المتطلع إليها والمعارضة السياسية وقضايا الصحافة والاقتصاد والثروة والقضاء ونزاهته والمرأة وعلاقتها بالرجل وبالحياة العامة وغير ذلك من الشؤون العامة.. بحيث يكون ذلك الوضوح داعماً بشكل قوي لدخول الحراك إلى الثورة والإنحياز إلى الشعب، متبنياً الاتجاه الواقعي في كل ما ذكرناه آنفاً، فهو متساوق مع العصر ومع متطلبات التغيير وأهداف الثورة ووسائلها وآلياتها، وفي الوقت ذاته غير مبتعد عن أصوله الإسلامية وثوابته الراسخة.

رابعاً: حماية الثورات من محاولات ركوب موجها

وبهذا الشأن نقول:

١. يجب أن يكون الوعي تاماً ومتأججاً في فهم ازدواجية أصحاب المشروع الآخر (الغربي)، في الدعوة إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات، فهم في حين يدعمون الديمقراطيات المطيعة لهم، فهم يدعمون الديكتاتوريات المطيعة أيضاً، وفي الحالتين فهم يسعون إلى ترسيخ أنانيتهم، وتعظيم الاندفاع خلف مصالحهم في كل التعامل .. لا يهمهم من كان التعامل معه ديكتاتورياً أم ديمقراطياً..!

٢. وإن الأمثلة على هذه الازدواجية في التعامل كثيرة، بدءاً بالقضية الفلسطينية في الأمم المتحدة، وفي محادثات ما يسمى (السلام)، فهم بدون أي تردد يسيرون مع الكيان الصهيوني، يدعمون من يهادنه أو يدعمه، وإن كان من أشد الديكتاتوريات وأغناها، ويعادون ويحاربون من يقف في مواجهته. وإذا شئت فانظر إلى تعاملهم مع الجزائر بعد فوز الإسلاميين بانتخابات نزيهة شفافة (باعترافهم) حيث وقفوا بقوة وشدة ووقاحة ضد فوز الجبهة الإسلامية بتلك الانتخابات الحرة الديمقراطية، ووقفوا وراء الانقلاب العسكري الديكتاتوري، الذي أطاح بالجبهة وما حققته من فوز، وذلك ليس حرصاً على الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، بل لعلمهم أن الجبهة إذا تسلمت الحكم، فلسوف تكون عقبة في طريق تحكمهم بثروة الجزائر، وبنظام حكمها وطريقة إدارة مجتمعها.

٣. اعتماد التدرج، فلا يكون الانتقال فجاً غير مدروس أو محاطاً بالعواطف العاصفة والتسرع المنتج للأخطاء والخطايا... إن التغيير عملية تحتاج إلى تأمل وتفكر عميقين، وإلى انتقاء السديد من بين الحلول المطروحة، وإلى مراعاة للوضع النفسي والواقعي للناس. كما أن التغيير يحتاج إلى النظر البعيد لا إلى اللحظة الحاضرة وحسب، ولقد التزم القرآن بموضوع التدرج في كثير من القضايا، إذ أخذ أمرها بالأناة والسير نحو التغيير فيها خطوة بعد خطوة.. ومن تلك القضايا: تحريم الخمر، فقد بدأ ربنا في إبعاده وتحريمه بمنع المصلي من الصلاة وهو سكران: ﴿لَا

﴿تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[1] **وانتهى فيه بقوله جل من قائل:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]**. وكذلك الأمر في موضوع الزنا وغير ذلك من الأمور والعادات التي ترسخت في نفوس وممارسات الناس أيام الجاهلية.. وهكذا فإنه بالتزام التدرج في اجتياز المفازات يتحقق التغيير والإصلاح بدون عنت ولا قهر.**

٤. **وبما أن الحراك الإسلامي يرى أن أكثر ما دخلت فيه الأمة من ظلم وفساد وقهر وخراب وذل كان سببه الابتعاد عن النبع الأصيل الذي أوجد أمة خيرة، وذلك بإيمانها بالإسلام وعقيدته وشريعته، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

وأقول بما أن رؤية الحراك الإسلامي هي كذلك فإن دخولها في الثورات وعليها لابد أن يكون سلساً هادئاً مراعياً لتشكل القناعات المجتمعية والفردية، ولهيمنة عادات وممارسات يومية أوجدتهما عقود، بل أكاد أن أقول قروناً من عمليات الإفساد والإبعاد عن شرع الله والفصام النكد تجاهه، ذلك الذي أرساه في الناس ظُلامٌ ورؤساءُ فكر مستورد، ورؤوس امتلأت هزيمة وانبهاراً سببهما تقليد الضعيف للقوي، وإتباع المهزوم لفكر وعادات وممارسات المنتصر بالقوة.. كما أرساهما جمود فقهي وقانوني وتزمت وتشنج غير صائبين ولا متعظين بما جاء عن رسول الله ﷺ من رفق ومودة ورعاية للنفوس، وما جاء من مراعاةٍ أَمرَ بها كتاب الله للظروف والأوقات والأماكن:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[3] **وإذن فالرفق الرفق بالناس، والتسامح**

---

(١) سورة النساء آية: ٤٣.

(٢) سورة المائدة آية: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٥٩.

التسامح معهم، والاستغفار لهم، والابتعاد عن التعصب والتشنج وفرض الرأي فرضاً، فإن من وصايا رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما ابتعثه إلى اليمن قوله له، بعد التدرج في دعوة الناس إلى الإسلام.. وبعد اقتناعهم به وبعباداته ومنها الصلاة والصدقة: «فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١].

والرسول ﷺ هو القائل: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»[٢]، وقال ﷺ: «هلك المتنطعون هلك المتنطعون»[٣]. والمتنطعون: المشددون على الناس في غير موضع التشديد. والعتل: الغليظ الشديد الجافي، والجوّاظ: الغليظ المختال المتفاخر العادل عن الحق.

- إن القول بشأن حماية الثورات من تبعية وهيمنة الآخر متشعب وطويل لكننا نكتفي في هذا الإيجاز بتعداد بعض وسائل الدفاع والحماية ومنها.

١. استعادة الثقة بالأمة وبما عندها من فكر وثقافة وبث ذلك في الأجيال كلها.
٢. استخدام ثروة الأمة في سبيل مصالحها وإبراز حضورها وجعل كلمتها ورأيها مسموعين وفاعلين في الساحات كلها.
٣. العناية بالتعليم والإعلام ليقوما بجد وثبات لبناء جيل معاصر، مؤسس فوق تاريخ طويل من الحضارة والعلم والثقة بالنفس والانفتاح على كل ما هو نافع من منتجات الغير السياسية والاقتصادية والعلمية والإدارية والتنظيمية، وذلك كله دون أن نصادم أصولنا وخصوصياتنا.
٤. يجب أن تحقق مكونات الثورات في بلادنا ما قامت من أجله، ألا وهو رفع الظلم المحلي والعالمي عن شعوبنا، وأن من أشد أنواع الظلم الذي حاق بالأمة هو التبعية والتقليد الأعمى، وفتح حدود الأمة لكل ناعق أو مغامر أو مبتغ للهيمنة والنهب أو السلب، ليس سلب الثروة فحسب، بل وسلب الأمة كل مقومات وجودها التي استطاعت بها أن تبني حضارة عظيمة، وأن تستمر في الوجود، وأن تستطيع أن تقيل نفسها من العثرات كلما حدثت، فتعود للحياة من جديد.

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.

٥. وبناء على كل ما سبق من البنود، فإن من أهم أولويات الحراك الإسلامي أن يعي كل تلك المفاهيم ويبدأ من أول يوم بعد نجاح الثورات في المشاركة الفعالة لوضع لبنات صلبة لجيل جديد، وذلك بسلاسة الدخول أو التوغل في أحشاء المشروع، دون افتعال أو تسرع أو مصادمة مباشرة مع التواضعات التي رسختها عقود وقرون من الهزيمة.
٦. إن العولمة الحقيقية الصالحة للبشر جميعاً هي عالمية ديننا التي تبتغي الخير للناس جميعاً، فلا أنانية ولا هيمنة، ولا نهب ولا سلب للخصوصيات والثروات.
٧. وإن فكر الاستهلاك الداخل على الأمم جميعها بقوة هو من أهمّ أدوات العولمة العصرية وهو الذي كدس الثروات بأيد قليلة وجعلها دولة بين الأغنياء وهم قلة، بينما الغالبية العظمى من البشر تعاني وتكابد اللهاث خلف سلعة أولئك القلة، فهم يقبلون على اقتنائها دون حاجة منهم لها، ويطرقون أبواب المؤسسات التي اصطنعها الأغنياء، ليقترضوا ويدفعوا ثمن الاستهلاك من أموال لا يمتلكونها، حتى إذا ارتفعت الأسعار وازداد اللهاث خلف السلعة مهما غلا ثمنها، وعجز المستهلكون عن الدفع، وعجزت المؤسسات إياها عن الإقراض، ارتفعت نسب الفقر والبطالة، وراجت أخلاق دونية، فاستعر الانتقام والانتكاس في المجتمعات، وساد الإفلاس، وراحت الأزمة العالمية تطوق الرقاب في كل أنحاء العالم، الذي ظل منذ زمن طويل خاضعاً للدولار والجنيه الذين استحوذا – ولزمن طويل وحتى اللحظة – على مقدرات الأمم وعملاتها ومعاملاتها، تدعمهما هيمنة متوحشة وقوة عسكرية واقتصادية طاغيتان أنانيتان، تعيشان بلا قيم نبيلة ترعاهما قيم الاستهلاك وإغراق السوق بالسلع، ويَحوطهما اقتصاد السوق المبتدع المتغول، والعبور السلس لكل الحدود، عبوراً مفروضاً فرضاً بتوحش القوة.
٨. وإذن فإنه ليس أمام استعادة شعوبنا لزمام المبادرة إلا باستعادة لحظة عالمية الإسلام وإنسانيته وسلامه.. ولكن ذلك لا يكون هكذا بدون حكمة وموعظة حسنة وجدال بالتي هي أحسن، وبترقيق الكلمات على الأسماع، وبتخفيف ثقل المسؤولية على العقول، وبفتح الباب أمام الحوار على أشده، وباتساع أبوابه مستخدمين كل وسائل العصر التقنية والفنية لإيصال الكلمة الطيبة إلى كل الناس، لعلهم يتفكرون ويعتبرون، وذلك كله لتحصين مجتمعاتنا أولاً من هجمات مكثفة تحمل الفكر الهيمني وكل الثقافات التي ذكرناها آنفاً، وهي التي تفتقر إلى القيم

النبيلة والحس الإنساني الجميل والمساواة والمشاركة في النظر إلى حضارة الإنسان وأنها صناعة شاركت في بنائها – على مدى الأزمان – كل الأمم وليس جنساً واحداً منهم، ادعى – زوراً وبهتاناً – أنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وكل ما عداه باطل ووهم وخيال، مع أن هذا المدعي يحمل في جوف حراكه الحضاري من الأمراض والأوجاع ما يسير بالبشرية باتجاه الهاوية، وها نحن نرى اليوم بوادر ذلك ببدايات الإفلاس الأوروبي حيث انقلب السحر على الساحر بفعل العولمة الباطشة المتوحشة..

إن العالم اليوم عاد كما كان يوم قام محمد رسول الله ﷺ بدعوته.. فهو ينتظر أن تبادره بادرة الإسلام الفذة كما أسلفنا آنفاً، وهي قادمة إن شاء الله، وإرهاصاتها بادية أمام كل ذي عينين، وقد أصبحت تلك البادرة مطلوباً عالمياً، وإن لم تذكر بصراحة القول وصافي الاعتراف اللذين يمنع بروزهما الكبر، واستمرار هيمنة الطامعين حتى اللحظة..

ولا ننسى أن نذكر في هذه العجالة: أن خير وسيلة وأعظم آلية تحققان مطلوب إنقاذ البشرية وحماية مجتمعاتنا وثوراتنا من الاستحواذ عليها ومن التبعية وهيمنة الآخر أو سرقة الثورات كما يقولون بالتعبير العصري.. أقول إن خير وسيلة وآلية لهذا الإنقاذ وهذه الحماية: هي أن نجعل من الثورات في بلادنا منطلقاً إلى بناء مجتمعات نموذجية، يكون العلم فيها متقدماً والتقنية عالية غالية، والهوية ملتزمة مطبقة، مسكوناً كل ذلك بالقيم والأخلاق والغايات النبيلة، التي تصنع للإنسان ملاذات آمنة في هذا العالم. الذي تحول في ظل المناهج الغربية العاملة إلى غابة. فإلى تلك القدوة والنموذج، ولنسع ولنجتهد في السعي طالما أن الثورات قامت على أساس التغيير، ولا ننسى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. وها هي النفوس مهيأة للانتقال إلى مواقع النصر والتقدم.. وقد قال الإمام البنا رحمه الله يوماً بمناسبة عيد الفطر عام ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م إن عيدكم الأكبر يوم تتحرر أوطانكم ويحكم قرآنكم. ويجدر بنا في المقام أن نقتبس كلمات للأستاذ الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، يقول فيها: «إن قلبي ولبّي مع الصحوة الإسلامية التي تحاك لها المؤامرات العالمية، ويتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم. وألم بعد ألم.... إننا طلائع الإسلام الذي يريد إعلاء الوحي الإلهي وإنصاف الفطرة الإنسانية وترشيد الحضارة، كي ترتبط بربها وتسير على هداه. إن تراثنا الذي قاد العالم دهراً يجب أن ينهض من كبوته، وتستأنف رسالته، ويغسل الأرض من

أدرانها..» [1] وهنا نقول بقول ربنا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[2]

وفي النهاية لا أستغني عن القول: والله من وراء القصد – فإن أحسنت فهو من الله فالحمد لله على فضله ومنّه عليّ أن قدرني على قولٍ بينٍ.. وإن أنا قصرت فمن نفسي، والله يهدي إلى الحق، وهو الفتاح العليم بالعبد ونواياه.. والحمد لله أولاً وأخراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عليه التكلان وإليه المعاد وهو الهادي إلى سبيل الحق، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [3].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه: محمد السيد
آذار ٢٠١٢

(١) من مقدمة كتاب «السنة النبوية» للشيخ محمد الغزالي ص(٨) طبعة دار الشروق الرابعة ١٩٨٩.
(٢) التكوير (٢٧ – ٢٨).
(٣) البقرة (٢٨٦).